وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٥)..

التفسير: ما أروعه وما أسماه من تعليم! لا يمكن لأي دين أن يباري الإسلام في مثل هذا التعليم. دعوا سلوك المسلمين جانبا، وانظروا إلى ما يأمر به الله هنا. يقول عزَّ من قائل: ليس لأحد أن يمنع أحدا من ذكر الله أو عبادته في المسجد بطريقته. لا يحق لمسلم أن يمنع مسيحيا أو سيخيا من أن يدخل مساجد المسلمين ويعبد الله تعالى بطريقته؛ أما الموسيقى والرقص التي يستخدمونها أثناء عبادتهم فيمكن أن يقوموا بهما خارج المسجد، أما العبادة وذكر الله تعالى فلهم أن يقوموا به في المسجد.

لقد حرّم الله هنا – بجرّة قلم واحدة –أيَّ ظلم واعتداء يقوم به أتباع دين ضد معابد أو عبادات أهل دين آخر، وأمر أتباع سائر الأديان أن يتحلوا بتسامح ورحابة صدر فيما يتعلق بمعابد وعبادات الآخرين، لأن منهجهم الحالي نحو معابد وعبادات الآخرين يقوم على عنت وظلم كبيرين.. عاقبتهما وخيمة.

ومنهج الظلم والاعتداء الذي اختاره الناس في زمن نزول القرآن، أو الذي يسلكونه اليوم، والذي يمنعه القرآن هو: أولا–الفريق الغالب يهدم أو يغلق معابد الفريق المغلوب، أو يحصر عليه العبادة فيه، وثانيا – أتباع كل دين يمنعون أتباع الأديان الأخرى من العبادة في معابدهم أو حتى الدخول فيها.

وكانت هذه الأمور في عهد النبي ﷺ شائعة بين أتباع الأديان، وترسخت فيهم بقوة حتى اعتادوها. فكانوا لا يرونها عيبا ولا منقصة، بل ضرورية وحقا لهم. وتدل شواهد التاريخ أن هذه الأمور لم تكن وليدة ذلك العهد، بل كان الناس يأتونها منذ القدم، لذلك لم يكن أحد يبدي أي استياء نحوها. بل ولا تزال كل هذه الأمور موجودة في عصرنا الحاضر بشكل أو آخر. فرغم أن ثقافة الإنسان قد حالت إلى حد كبير بين هدم المعابد أو إغلاقها، ولكن عدم سماح الناس بالعبادة في معابدهم

لأتباع دين آخر لا يزال إلى الآن أمرا عاديا. فالمسيحي لا يسمح للمسلم أن يتعبد في كنيسته، واليهودي لا يسمح للمسيحي أن يتعبد في بيعته، والهندوسي كذلك لا يسمح لهذا ولا لذلك أن يتعبد في معبده. ولو قام أحد بعبادته في معبد غيره لاستعدوا للحرب. ولا يستثنى من ذلك بلاد أوروبا المتحضرة ولا قبائل أفريقيا المتخلفة.

ولكن القرآن يمنع من كل هذه الممارسات الجائرة، ويقول إنه – رغم الاختلاف في العقيدة – لا يجوز بأية حال منْع أحد أن يعبد الله ويتغنى باسم الملك الحقيقي، أو يدخل المساجد، كما لا يجوز أن يسعى أحد لخرابها.. فإن هذا ظلم عظيم. يجب أن يتمتع كل واحد – غالبا أو مغلوبا – بحرية كاملة لاستعمال المعابد. ولا يجوز لقوم أن يمنعوا أحدا من أتباع دين آخر أن يذكر الله تعالى أو يعبده في معبدهم.. لأن المعابد تنسب إلى الله تعالى. فعلى الناس أن يخافوا الله في المعابد، ولا يوسعوا نطاق خلافاتهم إلى أماكن العبادة.. وإلا فالذين لا يعملون بحسب أوامر الله تعالى.. بل يلجئون إلى التشدد والغلو.. فإنهم يلقون العذاب في هذه الدنيا، كما أنهم لن ينجوا من عذاب الآخرة.

هذا هو تعليم القرآن الكريم عن صيانة حرمة المعابد وحرمة عبادة الأديان الأخرى. قارنوا هذا التعليم القرآني بتعليم أي دين آخر، ثم بينوا أي التعاليم أقرب إلى العقل والمنطق وأدعى لإقامة الأمن والاستقرار في العالم. ولكنهم رغم وجود هذا التعليم السامي يعترضون على الإسلام بأنه دين عصبية وتشدد. هذا الاعتراض لن يستقيم إلا إذا دلونا على دين يقدم تعليمات أفضل من تعليم القرآن. إن الدعوى بدون دليل تحطّ من شأن المدّعي وتخزيه عند العقلاء بدل أن ترفعه. إننا نتحدى ونقول: لا يمكن أن يباري الإسلام أي دين آخر في تعليم التسامح ورحابة الصدر. وإن أول إنسان عمل بهذا التعليم هو سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فإنه سمح لوفد نصارى نجران بالعبادة في مسجده على طريقتهم. فقد جاء في زاد المعاد: (لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فحانت صلاتهم. فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فاستقبلوا المشرق

وصلوا صلاتهم (زاد المعاد، فصل في قدوم وفد نجران). ويبدو أنهم كانوا في يوم الأحد. فعلى المسلمين أن يفكروا ما إذا كانوا عاملين بتعليم القرآن وسنة النبي ﷺ.. أم أنهم على عكس ذلك يتبعون قواعد ابتدعوها من عند أنفسهم؟

وعندي فإن هذه الآية قول فصل بيننا –نحن المسلمين الأحمديين – وغيرنا من المسلمين.. فقد استخدم القرآن الكريم كلمة (من أظلم) لثلاث فئات من الناس:

أولا–من يدعي النبوة كذبا

ثانيا – من يكذب النبي الصادق. قال الله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) (يونس: ١٨)

ثالثا –من يمنع الآخرين من عبادة الله في المساجد، كما جاء في هذه الآية.

فالآن.. إما أن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية قد افتري على الله كذبا وادعي النبوة الكاذبة، أو أنه صادق وأن المسلمين غير الأحمديين يكذبون بنبي صادق.. فأحد الفريقين يدخل تحت كلمة (أظلم). وهذا الآية تحسم القضية تماما، فبينما لا يمكن لأحد أن يقدم مثالا واحدا منع فيه المسلمون الأحمديون أحدا من غيرهم من العبادة في مساجدهم.. نجد عديدا من الأحداث التي مُنع فيها المسلمون الأحمديون من الصلاة في مساجد غيرنا من المسلمين، وتعرضوا للتشدد بشتى الأساليب. فدلت هذه الآية دلالة واضحة على أن المعارضين لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية قد أثبتوا بسلوكهم أنهم مصداق قول الله (فمن أظلم)، وأنهم يخالفون المشيئة الإلهية.

(أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين). يقول الله: من الغريب حقا أن تحدث بين الناس هذه الخلافات والمصادمات الشنيعة بسبب بيوت الله. فما كان لائقا بهم أن يمارسوا هذه الأعمال الجائرة، و لم يكن يحق لهم أن يمنعوا الناس من العبادة في المساجد، بل كان عليهم أن يدخلوا بيوت الله وقلوبهم وجلة خائفة.. لا أن يشتغلوا بإثارة الفتنة والفساد.

(لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم).. يقول جل من قائل: لما كان هؤلاء يريدون تخريب بيوتي فإنني أيضا سوف أخرب بيوتهم، وأذلهم وأخزيهم في

الدنيا، ثم أعذبهم في الآخرة عذابا عظيما. ذلك لأن الجنة بيت الله والمسجد ظله.. وما داموا قد خربوا المساجد فكيف يعيشون في الآخرة في أمن ودعة؟

بيد أن الآية لا تعني أن المساجد بحسب الشريعة الإسلامية، تحمي الخارجين عن القانون إذا هم لاذوا بها. فقد ذكر الله بعض القوم الذين بنوا مساجد للتآمر على الحكومة – أي على الرسول ﷺ وأصحابه – ثم سألوا النبي نفسه أن يأتي مسجدهم ليصلي فيه ويباركه، ولكن الله تعالى أخبره بالأمر، وأطلعه أنهم لم يؤسسوا هذا المسجد إلا إخفاء لنفاقهم وكيدا بالإسلام وضرارا بالمسلمين (التوبة: ١٠٧). فأمر بهدمه وجعل مكانه مزبلا.

فالمسجد بنفسه لا يحمي مجرما، وإذا ارتُكب فيه عمل سيئ عُدَّ سيئا، وإذا عُمل فيه عمل حسن اعتبر حسنا، حتى أن الرسول ﷺ قال عن حرم الكعبة أنه لا يحمي مجرما ولا باغيا ولا قاتلا ولا سارقا؛ بل يجب أن يقبض على هؤلاء ويعاقبوا. وعند فتح مكة بلغ النبي ﷺ أن ابن الأخطل – المدان والمحكوم بقتله من قبل –لائذ بأستار الكعبة، قال: اقتلوه، فإن الكعبة لا تعيذ عاصيا، فقتل (السيرة الحلبية ج٣، فتح مكة).

فما دام الرسول ﷺ قد قتل المجرمين وإن كانوا في الكعبة نفسها، فما بالك بالمجرمين الخارجين على القانون الذين يلوذون بمساجد أخرى؟! ما أسست المساجد إلا لإقامة التقوى لا للخروج على القانون. وإذا صارت المساجد نفسها مراكز الخروج على القانون.. لم يعد أي بيتٍ مغلقًا في وجه الشيطان. فالبيوت التي أسسها الله تعالى لإقامة الأمن والأمان، وإقرار السكينة والطمأنينة والروحانية والتقوى، وجعلها رمزا للتعاون والوحدة.. إذا اتخذها المسلمون مراكز لإثارة الفتن والفساد بين المسلمين أو للخروج على الدولة، فذلك ظلم عظيم لا يسمح به الإسلام مطلقا.

لقد ذكر الله في هذه الآية عقابين للذين يمنعون الناس عن مساجد الله وعن ذكره وعبادته: أحدهما – أن لهم الذل والخزي في الدنيا، و ثانيهما – أنهم يعذبون في الآخرة عذاب عظيما. والسر في ذكر الخزي في الدنيا هو أن الغرض من بناء

المساجد والمعابد ليس إلا عبادة الله تعالى، فمن يمنع الناس من العبادة فيها فإنه يهين ويُخزي نفسه أمام العالم، وهذا عقاب طبيعي لهذا العمل.

وهذه الكلمات كانت تحمل في طيها نبأ عظيما يخص مشركي مكة الذين كانوا منعوا المسلمين من الدخول في المسجد الحرام، ولما فتحت مكة تعرض هؤلاء لعذاب الخزي والهوان.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٦).

شرح الكلمات:

وجهه – الوجه يعني: ذات الشيء؛ التوجه والعناية؛ صفحة الوجه (الأقرب). ويعني قوله (فثم وجه الله) أولا- أنكم تجدون الله في نفس الجهة، ثانيا – تجدون هناك العناية الإلهية، ثالثا – ترون هناك وجهه.

واسع – صاحب سعة عظيمة أو مانحها (الأقرب).

التفسير: النصارى الذين يتحينون الفرص دائما وأبدا للطعن في الإسلام – يستدلون من هذه الآية على أن القرآن بدَّل قبلة المسلمين شيئا فشيئا (ترجمة سيل للقرآن، تحت هذه الآية).ومما يؤسف له أكثر.. أن بعض المفسرين قد شهدوا لهذا الطعن جهلا منهم، مع أن هذه الآية عندهم من الآيات المنسوخة. يقول هؤلاء أن الله في أول الأمر أخبر المسلمين أن المشرق والمغرب لله، فصلوا متجهين إلى أية جهة شئتم، ثم أمرهم أن يتجهوا إلى القدس، وأخيرا أمرهم بالاتجاه نحو بيت الله الحرام في مكة. وكأن هذه أول آية عندهم أمر فيها المسلمين بأن يصلوا نحو جهة غير معينة، ولكن الله نسخ هذا الأمر بعدئذ. ومع أنه ليس هناك أي علاقة بين هذه الآية وبين القبلة، إذ لم يرد أي ذكر للصلاة لا في هذه الآية ولا في التي قبلها، وإنما ذكرت المساجد فقط، ولكن لا يستقيم بعدها ذكر المشرق والغرب إذا كان قد ذكر في معنى القبلة.. لأن ذكر المساجد يتطلب تحديد جهة معينة يتجه إليها المسلمون في الصلاة كي لا تختلف اتجاهاتهم، ولكن الله تعالى يقول بعد ذكر

المساجد (أينما تولوا فثم وجه الله). ثم إنه لم يرد في الآية التالية أي ذكر للصلاة ولا للقبلة. إذا فلا يستقيم المعنى الذي أراده هؤلاء.

الواقع أن عدة آيات سابقة تبحث في أن اليهود والنصارى الذين يزعمون أنه لا نجاة إلا في أديانهم، وأن المشركين الذين لا دين لهم أو الملحدين المنكرين لوجود الله تعالى.. كل هؤلاء يحاولون بلا مبرر تخريب مساجد المسلمين، ويحولون بينهم وبين عبادة ربهم الذي لا شريك له، ولكن الله تعالى سوف يخزي كل هؤلاء ويهينهم، لأنهم يريدون تخريب بيت الله.

ومن سنة الله أنه حينما ينزع من قوم شيئا يؤتيه قوما يستحقونه، وحيث إن الله تعالى قرر أن ينتزع منهم أموالهم وممتلكاتهم بسبب أفعالهم الشنيعة، ويذلهم ويخزيهم.. لذلك خفف على المسلمين ضعفهم وقلة حيلتهم بقوله: لله الشرق والغرب – أي لا تقلقوا، فلله المشرق والمغرب.. ينتزع منهم ملكهم ويملِّككم المشرق والمغرب.

فخلاصة القول أن هذه الآية تشير إلى موضوع الفتوحات الدنيوية فقط.. وليس إلى موضوع الصلاة. فهو يقول: لما كان المشرق والمغرب لنا فأينما تولوا فثم وجه الله. أينما توجهتم بجنودكم تجدوا هناك العناية الإلهية أو وجه الله تعالى أو الله نفسه جل وعلا.. لأنكم جميعا تسعون لتحقيق هدف واحد.

ولقد رأيت مرة في الرؤيا أنني أخطب أمام جماعتنا حول موضوع هذه الآية وأقول لهم: إنها تشير إلى أنه لو كان هدف جماعتنا واحدا.. فهما تعددت الجهات التي نتوجه إليها.. واضعين هذا الهدف نصب أعيننا.. فلن يحصل فيها شقاق أو خلاف، وإنما سنعمل بروح الجماعة الواحدة. ولكن لو لم يكن لنا هدف واحد فلن نتخلص من الانشقاق والتفرقة وإن توجهنا إلى جهة واحدة. فلا تظنوا أنه لا بد أن تتجهوا إلى جهة واحدة، بل إذا توجهتم إلى جهات مختلفة بهدف واحد.. فأنتم عند الله متحدون، وسوف يكون معكم أينما حللتم، ويريكم وجهه أينما اتجهتم.

وبالنظر إلى معاني (وجه الله) التي ذكرت من قبل يكون المراد من قوله (أينما تولوا فثم وجه الله) هو:

أولا- أينما توجه المسلمون فسوف تشملهم العناية الإلهية وتهيئ الأسباب لغلبتهم فيحققون نصرا تلو نصر.

وثانيا- أينما توجهوا يرون وجه الله تعالى، أي أنه يرعاهم ويحفظهم.

وثالثا- أنهم يجدون ذات الله في كل مكان، بمعنى أن هذه الانتصارات انتصارات دنيوية في الظاهر، ولكنها كانت دفاعا عن مساجد الله ومعابده.. لذلك تعتبر دينية، وسوف يكسب بها المسلمون حب الله ورضاه. وكأنهم لا ينالون بها الدنيا فقط، وإنما ينالون أيضا حب الله ورضاه. وهذا كقول النبي ﷺ أنه إذا وضع الرجل اللقمة في فم زوجته يبتغي بذلك وجه الله تعالى كانت له حسنة (البخاري، كتاب النفقات). مع أنه يفعل هذا حبا لزوجته. ولكن لما كان يفعل هذا ابتغاء مرضاة الله لذلك ينال عليه الثواب. ولو حقق غير المسلمين أي انتصار كهذا نالوا به الدنيا فقط، ولكن المسلمين ينالون به الدنيا والدين معا. فهم سوف يفتحون الدول كما ينالون ثواب الله أيضا.

لقد أخبر الله بهذا النبأ عندما كان المسلمون قلة قليلة، يمرون بظروف صعبة، ويتعرضون لأنواع الإبتلاءات والمصائب، ويبدو المستقبل أمامهم جِدّ حالك، ولكن النبأ تحقق بسرعة حين فتحت مكة، واجتمع العرب جميعا تحت راية الإسلام، ولم يمض قرن من الزمان حتى ارتفعت ترفرف خفاقة عالية في كل البلاد تقريبا.

كما تشير عبارة (ولله المشرق والمغرب) إلى أن الله قد قدّر للإسلام أن ينتشر أول الأمر في البلاد الشرقية، وأنه سوف ينتشر في الغرب أيضا آخر الزمان عندما يُبعث المأمور الموعود. لذلك على الغرب أن يستعد، فذلك الزمن ليس ببعيد الآن: فقد طلعت الشمس وأخذت أشعتها توقظ أهل الغرب.

(إن الله واسع عليم). هذه العبارة أيضا تؤيد موقفي بأنه لا علاقة بين الآية وبين القبلة. فالله تعالى واسع.. إنه يبسط لمن يشاء في المال، ثم إنه عليم.. يعلم من أولئك الذين سوف يحققون للناس الأمن والراحة، فيجعل فيهم مُلكه، لأن الملك إنما يستحقه من يجد الناس عنده الأمن والراحة.

ليكن معلوما أن هناك نبوءات تفيد أن جماعتنا أيضا سوف تحقق الرقي المادي، ولكن لنعلم أن الله يؤتي ملكه لمن يعمل لراحة الناس أكثر من غيره. فعليكم أن تكونوا مصدر نفع للناس أكثر من غيركم، لأن الناس إذا لم يجدوا منكم الأمن والراحة فلا تستحقون أن يوليكم الله زمام أمورهم، وهل يَبعث ظالما مكان ظالم آخر.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٧) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٨)

شرح الكلمات:

قضى – لها عدة معاني منها:

١.خلق، كقوله تعالى (قضاهن سبع سماوات)(فصلت: ١٣).. أي خلق الكون في صورة سبع سماوات.

٢. أعْلَمَ. كقوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب)(الإسراء:٥)

٣. أمَر: كقوله تعالى (وقض ربك ألا تعبدوا إلا إياه)(الإسراء: ٢٤)

٤. أقام عليه الحجة وأدانه كقولهم: قضى عليه القاضي.

٥.أتم، كقوله تعالى: (فلما قضي موسى الأجل)(القصص: ٣٠)

٦.أراد، كقوله تعالى (إذا قضي أمرا)(البقرة: ١١٨)- (الأقرب)

أمرا –الأمر: الدين، يقال ظهر أمر الله: نزلت أحكامه وشريعته.

والأمر: الشيء، كقوله تعالى (إذا جاء أمرنا)(هود:٤١)

والأمر: العذاب، كقوله تعالى (قُضي الأمر) (البقرة: ٢١١)

(قضى أمرا) تعني في ضوء القرآن نزول الإلهام الإلهي.

التفسير: رغم أن ادعاء اليهود أن لا نجاة إلا لبني إسرائيل ادعاء خاطئ.. إلا أنهم كانوا لا يدْعون الناس إلى دينهم، ولكن المسيحيين رغم زعمهم الخاطئ أن لا نجاة

إلا للنصارى، فإنهم يقعون في خطأ آخر.. ذلك بدعوة الآخرين إلى دينهم. كما يبنون خطأهم هذا على عقيدة خاطئة تقول إن المسيح ابن الله، ولا نجاة إلا لمن آمن بابن الله تعالى. وقد دحض الله زعمهم هذا بعدة أدلة، فقال إنه لا تجوز نسبة البنوة إلى الله تعالى، لأنه منـــزه عن العيوب، ونسبة الولد إليه اعتراف بوجود العيوب في ذاته ــجل وعلا عن ذلك.. ومن هذا العيوب:

أولا – إنجاب الابن يقتضي الشهوة، التي تدل على صرْف الفكر إلى شيء وعلـــى الاحتياج إليه.. والله متعال عن هذه العيوب.

وثانيا –الابن يقتضي وجود الزوجة، وهذا أيضا احتياج ونقص، والله منـــزه عـــن كل منقصة.

وثالثا – الابن يقتضي الجزئية، بمعنى أن الولد جزء من أبيه حيث يتولد من جسمه وذاته. ولو سلمنا بوجود ابن لله تعالى –لاضطررنا إلى الإيمان بإمكان أن يتجـــزأ الله–سبحانه –إلى أجزاء.

ورابعا– وجود الابن يقتضي الفناء.. لأن الكائنات الفانية هي التي تحتاج إلى ذرية، أما الأشياء التي لا تفنى حتى تحقق الهدف من وجودها فلا تحتـــاج إلى مـــا يقـــوم مقامها، ومثال ذلك الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض وغيرها، فلن تزال هذه الأشياء تعمل كما هي إلى ما شاء الله.. لذلك لن تفنى ولن تحتاج إلى ما يقوم مقامها. ولكن لما كان الإنسان يفنى لذلك يحتاج إلى من يحل محله. فـــإذا ســـلمنا بوجود ابن الله.. فلا بد أن نسلم بفنائه أيضا . والله منـــزه عن هذه العيب وعـــن أي عيب سواه.

وقوله تعالى (له ما في السماوات والأرض) يبين أن المِلك في بعض الأحيان يحتـــاج إلى ولد أو وزير يساعده في توسيع نطاق ملكه، ولكنه – تبارك وتعالى – لا يحتاج لأي مساعد.. لأن الإنسان يحتاج إلى مساعد عندما يصعب عليه تحقيـــق مطلبـــه بنفسه، كفتح قطر جديد وضمه إلى مُلكه، ولكن ما دام الله خالق كـــل شـــيء ومالك كل شيء فأي حاجة دَعَتْه لاتخاذ ولد؟

ثم إن الملك يحتاج لمساعد مثلا لقمع ثورة في بعض مناطق ملكه النائية، أو لإخضاع أهلها تحت حكمه، ولكن الله – جل وعلا – ليس أحد بخارج عن ملكه، بل كلّ له قانتون.. فكيف والحال هكذا.. تصح عقيدة أن الله اتخذ له ابنا؟

ثم من الممكن أن يقول قائل: لا شك أن مُلكه قد استتب الآن، ولكن لا بد أنه كان بحاجة ابن حين خلق السماوات بسبب كثرة العمل وضغوطه؛ ورد الله على هذه الظن قائلا (بديع السماوات والأرض).. أي أنه بنفسه خلق السماوات والأرض ولم يواجه أي صعوبة في خلقه حتى يشعر بحاجة إلى ابن. فقوله (بديع السماوات والأرض).. ترد على زعم بعض الفرق المسيحية التي تزعم أن المسيح ابن مريم كان شريك الله تعالى في خلق السماوات والأرض.

ونحن نسأل أولئك المسيحيين: ما هو الدور الذي لعبه الابن في خَلْق العالم؟ فإذا قالوا: إنه لا دور له، قلنا: فقد ثبت ألاّ جدوى من وجود الابن. وإذا قالوا إنه خلق العالم، قلنا: ألم يكن الإله الأب بنفسه قادرا على خلقه؟ فإذا قالوا: لا، قلنا: قد أقررتم بالمنقصة في حق الإله الأب. وإذا نزَّهوه عن نقصه قلنا: فقد كان الإله الأب قادرا على خلقه، فثبت أن المسيح لم يلعب أي دور في عملية الخلق.

ثم نسألهم: هل كان روح القدس قادرا على خَلْقه أم لا؟ فإذا قالوا: لا، قلنا: فقد أقررتم بالمنقصة في روح القدس. أما إذا قالوا: إنه لعب دورا في خلقه، قلنا: فقد اعترفتم بالنقصان في الإله الأب. وما دام كل واحد من الإله الأب والإله الابن وروح القدس قادرا على خَلقه بمفرده أيضا فلماذا خلقوه جمعيا؟ ومثال ذلك أن يكون هناك قلم يستطيع الإنسان رفعه بدون حاجة إلى مساعد، ولكنه لو نادى الجميعَ لمساعدته في رفع القلم لاعتبروه من الحمقى الأغبياء. وما دام الله بمفرده قادرا على خلق السماوات والأرض، فلا شك أن النصارى بقولهم إن المسيح أيضا عمل في خلق الكون ينسبون الله سبحانه إلى الحمق والغباء.. لأنه بدون داعٍ أشركه في عملية الخلق مع أنها لم تكن صعبة عليه.

وأرى أننا لو استخدمنا هذا الدليل في ردِّ أي مسيحي لعجز عن الجواب كما عجز قسيس كبير في مناظرة جرت بيني وبينه في دِلْهَوْزي (الهند). فقد اعترف هذا آخرَ

الأمر أن مسألة التثليث في التوحيد والتوحيد في التثليث، مسألة يتعذر على أي إنسان فهمها.

ومن المعلوم أن كلمة (بَدَع) تعني: أوْجَد مِن عَدَم (المفردات). فقوله هنا (بديع السماوات) يدل على أن الروح والمادة كلتيهما حادثة. وبذلك يُبطل الإسلام النظرية الهندوسية بأن الروح والمادة أزليتان (ستيارت بركاش، باندت دياننـد، ٢٢١).

ثم قال (وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون).. أي أن الله تعالى عندما يريد أمرا فليس هناك ما يحول بينه وبين إرادته؛ وإنما بقول كُنْ يتم تنفيذ مشيئته. وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قادر على خلق العالم، كما أن إفناءه أيضا في يده، لذلك فهو لا يحتاج لأي ابن.

وسبب ذكر هذا الأمر أنه كان من الممكن أن يتوهم البعض أن الله تعالى قد خلق الأشياء وأنها كلها خاضعة لنواميسه، ولكن ربما يحتاج لإفناء هذا العالم الموجود إلى مساعد ومعاون. فرد الله على هذا الوهم قائلا إن الفناء أيضا في يده، ولا حاجة له في ابن لإنجاز هذه العملية.

كما أن قوله تعالى (وإذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون) يتضمن تعريضا لطيفا بعقيدة المسيحية القائلة بموت المسيح على الصليب، فهو يقول: إن الله الذي أمات على الصليب ابنه الذي تتخذونه إلها.. أي صعوبة أمامه ليفني العالم كله؟ كان يستطيع أن يهلك الأعداء جميعا بكل سهولة ولا يمكن أن يرد أمرَه شيء.

كما ينبه قوله تعالى (وإذا قضى أمرا) إلى أن إنزال الوحي أيضا في يده سبحانه؛ فإذا أراد إنزال وحي جديد إلى العالم فليس في الدنيا قوة تحول دون إرادته. إذن فهذه العبارة تدحض زعم النصارى أن الوحي السماوي الأخير قد نزل على المسيح (عليه السلام)، ولن ينزل بعده أي وحي.

لقد سمي المسيح في الكتب المسيحية (الكلمة)، وسماه القرآن أيضا (كلمة الله)، فاستدل المسيحيون منه خطأ أنه قد انقطع نزول الكلام الإلهي بعد ذهاب الكلمة وكلمة الله. ولكنه – عز وجل- خطّأهم وقال إنه كما كان يُنزل كلامه في

الماضي فإنه سوف يُنـــزله في المستقبل، وكما أنه لم يكن محتاجا إلى أي مـــساعد لتدبير العالم الروحاني من قبل فإنه لن يحتاج إلى ابن أو مساعد للقيام بهذه المهمة في المستقبل.

وليكن معلوما أن جملة (كن فيكون) لا تعني أبدا أن الله عندما يريد عمل شيء فإنه يحدث على الفور دفعة واحدة، وإنما المراد أنه عندما يريد فعل شيء فإنـــه لـــيس كالإنسان بحاجة إلى حركة أو انتقال من وضع إلى آخر، وإنما يريده فيحدث دون أن يحول بينه وبين إرادته أي حائل. كما أن هذه الجملة لا تدل على وقت محـــدد لحدوث ذلك الشيء، وإنما يحدث بعد إرادة الله في زمن قصير أو طويـــل قـــدَّره لحدوثه.

وخلاصة القول: إن الله قد دحض هنا عقيدة بنوَّة المسيح بخمسة براهين، وبين أنه سبحانه وتعالى لا يحتاج لابن، بل هو في غنى عن كل حاجة. ليس من شك في أنه قد أطلق على المسيح في الأناجيل كلمة (الابن)، ولكن كل من له إلمـــام بـــسيط بالتوراة يدرك جيدا أن (ابن الله) تعني عند اليهود (حبيب الله) أو نبيَّه. وقد أُطلقت هذه الكلمة في عدة مناسبات على أشخاص آخرين، ولا خصوصية للمـــسيح في ذلك.. فقد قيل:

(فأجاب وقال لهم يسوع: أبناء هذا الدهر يزوِّجون ويزوَّجون، ولكن الذين حُسبوا أهلا للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون. إذا لا يستطيعون أن يموتوا أيضا لأنهم مثل الملائكة، وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة)(لوقا ٢٠: ٣٤-٣٦). فقد أطلق هنا أبناء الله على كل من يقِفون حياتهم على خدمة الدين.

وقيل أيضا (طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون)(متى ٥: ٩). وقد حث المسيح كل المؤمنين لاكتساب هذا اللقب فقال: (لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات). وقال (فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل)(متى ٥: ٤٥، ٤٨).

وفي كتب موسى أيضا أُطلقت هذه التسمية على المؤمنين فقيل: أنتم أولاد للرب إلهكم)(تثنية ١٤:١).وقيل: (إسرائيل ابني البكر)(خروج ٤:٢٢)إذن فسيدنا يعقوب أولى وأحق من المسيح بأن يكون ابن الله تعالى.. لأن يعقوب كان ابنا بكرا لله في حين كان المسيح ابنا فقط، فكيف يجوز لابن أن يرث أباه والابن البكر موجود. فالمؤمنين كلهم أبناء الله بحسب العهدين القديم والجديد كليهما، وليس للمسيح أية خصوصية في ذلك.

وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٩).

التفسير: من الناس من يظنون لغبائهم أن الله تعالى يختار أصفياءه بدون حكمة، وبغضّ النظر عن أهلية فيهم واستعداد عندهم. ثم يؤدي بهم ظنهم إلى قول: لم لا يأمرنا الله بما يريد مباشرة حتى لا يحدث أي خلاف؟ لماذا لا يكلمنا مباشرة؟ وإذا كنا لا نستحق التحدث معه فكان المفروض أن يأتي ببرهان ودليل على كلامه مع النبي حتى نؤمن به.

لقد توصلتُ في تحقيقي ودراستي للقرآن أن كلمة (آية) عندما ترد في القرآن منسوبة إلى الله جل وعلا أو إلى الرسل أو المؤمنين فإنها تأتي بمعناها العام.. أي علامة تثبت صدق شيء سواء كانت العلامة عذابا أو إنعاما أو غيرهما من دليل. أما إذا وردت في حق الكفار كان معناها العذاب. والآية هنا بهذا المعنى.. فقد قالوا: كان يجب أن ينزل الله كلامه علينا حتى نقبله، لأننا أيضا عباده كما هو عبْدُه، فلماذا يميز بيننا وبينه؟ وإذا قيل لنا: إنكم عباده ولكنكم أصبحتم أشرارا واستوجبتم العذاب.. فلم لا ينزل الله علينا عذابه؟ وما دام لا يهلكنا بعذابه فذلك يعني أننا لسنا أشرارا.. فلماذا إذا لا يكلمنا ويفضّل محمدًا علينا؟

فقوله تعالى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم) يبين بجلاء أن سائر الأنبياء قد واجهوا اعتراضات متشابهة. وعندما كان الإمام المهدي والمسيح

الموعود ينصح معارضيه بقياس صِدْقِة على منهاج النبوة المحمدية، كانوا يضيقون بذلك كثيرا ويقولون: لماذا تذكر النبي محمدا ﷺ؟ وكان المولوي محمد علي[٦] محرر مجلة الجماعة (مقارن الأديان) وقتئذ يرد على هذه الاعتراضات قائلا: إن حضرته نبي من الأنبياء، ولو لم نذكر النبي محمدا ﷺ كمثال فماذا نفعل؟ ولكن الأسف أن المولوي محمد علي هذا نفسه غيَّر موقفه فيما بعد، وبدأ يقول بأن حضرته لم يدع بالنبوة قط، وأن هذه عقيدة اخترعتها جماعة قاديان. على أية حال يقول الله إنه لو صح اعتراضهم هذا لبطلت رسالات الأنبياء كلهم. فعندما ادعى موسى بتلقي الوحي من الله تعالى لم يتلق الآخرون الوحي مثله. ثم إن الله تعالى لم يُهلك أعداءه دفعة واحدة، وإنما أهلكهم بعد إقامة الحجة عليهم شيئا فشيئا. كما أن المسيح عندما تلقى الوحي لم يشاركه في ذلك غيره، ولم يهلك الله الباقين مرة واحدة. فيجب أن تطبقوا معياركم هذا على الأنبياء السابقين حتى تعرفوا صحة قولكم أو فساده. فإذا لم ينطبق عليهم معياركم هذا ثبت أن قولكم خلاف منهاج النبوة.

الواقع أن المرء عندما لا يجد جوابا يتشبث بعذر يخلِّصه من النقاش. وطالما لجأ أعداء الأنبياء إلى هذه الحيلة، فكلما فشلوا في النقاش أسرعوا إلى مطالبة أنبيائهم بأمور مستحيلة، وهم يعلمون جيدا أن تحقيقها مستحيل لسبب أو لآخر. فهم مرة يطالبون بما يكون مخالفا لسُنة الله تعالى، وتارة يطالبون بتحقيق شيء على الفور وهم يعلمون أنه سوف يتحقق ولكن بعد مدة، وتارة أخرى يطالبون بما يتنافى مع عظمة الله جل شأنه. وعلاوة على ذلك يقولون: لولا يعذبنا الله إن كنا كاذبين.

والنبي المصطفى ﷺ أيضا مثل الأنبياء الآخرين في هذا الشأن، بل رغم كونه أسماهم مكانة وأعلاهم شأنا عامله أعداؤه بجهل أكثر، فكانوا لا يقدرون على معارضته بالدلائل ويطالبونه بشتى الأمور، وقد ذُكر هنا أمران منها:

---

[٦] المولوي محمد علي هو رئيس المجموعة الذين أرادوا إلغاء الخلافة في الجماعة الإسلامية الأحمدية، فانشقوا عن الجماعة التابعة للخلافة، وتركوا مركزها واشتهروا باسم الجماعة اللاهورية.

أحدهما – إذا كان نبيا صادقا فلم لا يكلمنا الله بشأنه، ويقول لنا إن هذا الرجل صادق فآمنوا به. مع أنه لم يحدث أبدا في زمن أي نبي أن أخبر الله الناس جميعا بالوحي أنه نبي صادق فآمنوا به. حقا أن الله يخبر بعضا من الناس بصدقه بالرؤى والكشوف، ولكن إخبار الجميع خلاف لسنته عز وجل.

ثم إن الناس لا ينتفعون بشهادة من يَشهدون على صدقه بإخبار من الله.. وإنما يتهمونهم أيضا بأن لهم ضِلعا في هذا الأمر.

ثم إن إخبار الجميع بصدق نبي بالإلهام غيرُ مجدٍ، لأن الإيمان ينفع صاحبه إذا ناله بجهد وسعي. وإذا آمن كل الناس بإلهام من الله تعالى فأي فائدة في هذا الإيمان؟ هذا الأسلوب يتنافى مع الهدف من خلق الإنسان، ولا يبقى هناك أي فرق بين الإنسان وغيره من المخلوقات. فالله يخبر أن هؤلاء لا علم لهم بسنة الله، ولا يعرفون أي إيمان ينفع صاحبه. إنهم يطالبون أن يكلمهم الله، مع أنهم يعلمون أن الرسل السابقين الذين هم بهم مؤمنون..قد طولبوا بذلك و لم يتحقق هذا المطلب، ورغم هذا المثال فإن مطالبتهم هذا النبي بنفس المطلب الأول لدليل على أن قلوبهم تشبه قلوب أعداء الرسل السابقين.

والمطالبة الثانية منهم: يجب أن تأتينا آية، فردّ الله بأننا قد أريناكم آيات ينتفع منها الإنسان إذا أراد، ولكن الذين أصيبوا بداء التعصب والعناد فلا دواء لهم. كما أسلفت أن(الآية) هنا تعني العذاب، فالمراد من قولهم (أو تأتينا آية): لِيعذِّبْنا الله بعذاب من عنده، فيرُد الله أنه لا غرابة إذا وجَّهتم مثل هذه الاعتراضات، لأن من خلَفْتموهم ما زالوا يفعلون كما تفعلون. وكما أن الرسول يكون مثيلا لرسول آخر.. كذلك يكون أعداء النبي أشباها لمن كفروا بالأنبياء السابقين. فإذا ادَّعى أعداء محمد ﷺ أنه لم يُرِ آية فلا جديد في ذلك، لأنهم أشباه أعداء عيسى. وإذا كان أعداء عيسى قد اعترضوا عليه أنه لم يُرِهم آية فلا غرابة في ذلك لأنهم كانوا أشباها لأعداء موسى. وإذا كان أعداء موسى قد وجهوا نفس الاعتراض فلم يكن بدعا منهم لأنهم كانوا أشباها لأعداء إبراهيم. وإذا قال أعداء إبراهيم نفس الكلام فقد فعلوا ذلك لأنهم أمثالُ أعداء نوح. قد تشابهت قلوبهم وقلوب السابقين..

لذلك يقولون اليوم لولا تأتينا بآية، مع أن هناك آيات عديدة للذين يريدون الإيمان، أما الذين لا يريدون الإيمان فلا يبصرون أيّة آية.

وبين قوله تعالى (تشابهت قلوبهم) أن أتباع كل نبي يسيرون على نهج أتباع الأنبياء الآخرين، كما أن الكافرين بنبي يتبعون سنن الكفار السابقين. فالأنبياء يشبهون الأنبياء من قبلهم، وجماعتهم تشبه الجماعات السابقة، والكفار يتشابهون مع الكفار السابقين.. ولا سيما الأنبياء الذين يكونون في المهمات المنوطة بهم مشابهين لأنبياء آخرين فتكون أحوالهم شديدة الشبه.

وبقوله تعالى (قد بيّنّا الآيات لقوم يوقنون) يعني أنكم تطالبون بالعذاب لتعرفوا صدق هذا النبي.. والواقع أننا أريناكم آيات عديدة وبراهين كثيرة تتيح لكم معرفة صدقه.. شريطة أن تكونوا صادقي النية بعيدين عن التعصب والعناد. فإذا كنتم أمناء في مطالبكم فلم لا تُعْمِلون فكركم في هذه الآيات والبراهين، ولماذا تصرّون على نزول العذاب. لو كان الغرض من بعث الأنبياء إهلاك العباد لما بعث الله نبيا إلا وأهلك سائر الكفار على الفور. ولو كان الأمر كذلك لم يؤمن به أحد. لذلك جرت سنة الله أنه عندما يبعث نبيا يُري في أول الأمر آيات رحمته.. كي يؤمن من يريد الإيمان، ثم يهلك الله بعذابه الكافرين المطبوعين على التعصب والعناد.

وفي قوله تعالى (لقوم يوقنون) إشارة لطيفة إلى أن الله قد أظهر آيات كثيرة، ولكن كيف يؤمن الذي يتشكك ويرتاب في كل شيء؟ فإن كنتم تريدون الهداية فاتركوا عادة التشكك والارتياب، وتحلّوا باليقين. كيف يستطيع رؤية الآيات من يرفض كل آية ثم لا ينفك يردد قوله: أرني آية، أرني آية؟ وفي بلدنا يقولون إنك تستطيع أن توقظ النائم، ولكنك لا تقدر على إيقاظ من ليس بنائم!

وليس المراد هنا من الآيات آيات القرآن، وإنما المراد الأدلة والبراهين التي لا بد منها لإثبات صدق نبي. فقوله تعالى يدحض اعتراض المسيحيين أن النبي ﷺ لم يُرِ أيّة آية، لأنه يقول: قد أريْنا كل أنواع الآيات بكل وضوح لقوم يوقنون.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١٢٠).

شرح الكلمات:

بالحق –حال للفاعل أو المفعول به، وتعني مع الحق (إملاء ما مَنّ به الرحمن – تحت هذه الآية).

التفسير: يجب أن نتذكر دائما قاعدة هامة في بيان معاني القرآن، وهي أنه إذا كانت آيه ما تحتمل عدة معان لا يتنافى منها أي معنى مع آية أخرى.. فيمكن اختيار تلك المعاني كلها، لأن القرآن يفسّر بعضه بعضا. وكلمة (بالحق)هنا تحتمل أربعة معان: فإذا اعتبرناها حالا للفاعل كان المعنى: إنا أرسلناك والحق معنا. ولهذه الجملة معنيان: الأول – إنا أرسلناك وكنز الحق والصدق عندنا دون سوانا، فلا يستطيع أحد سوى الله أن يقدّم مثل هذا التعليم الصادق الحق؛ لأنه لو حاول ذلك لما تجنب الكذب فيه، وارتكب فيه – عمدًا أو سهوًا – أخطاء كثيرة فادحة تجلب على العالم الخراب.. فكنا أوْلى بإنزال هذا التعليم الذي يهدي إلى الحق.

والثاني –إنا أرسلناك ونحن أحق بإرسالك. كأنه عز وجل يقول: نحن بديع السماوات والأرض فنحن صاحب حق في إنزال هذا التعليم. نحن خالق هذا الكون ومالكه.. وبديهي أن واضع نظام العالم هو صاحب الحق في الحكم، وليس لأحد سواه أن يتدخل في ذلك.

يقول الآريون الهندوس إن الله لم يخلق الروح والمادة (ستيارث بركاش، ص ٢٢١). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقولون: إن الله هو الذي يسن قوانين الكون. وهذا خطأ، لأن الذي لم يخلق لا حق له في سن القوانين، وإنما يحق ذلك لمن كان خالقا ومالكا.. لأنه أعلم بحاجات خلقه. أما الذي لم يخلُق فأنّى يكون له اطلاع على ما يختلج في قلوب خلقه من مشاعر وأحاسيس، وأنّى له العلم بما ينفعهم وبما يضرهم؟ فلا بد أن يسن قوانين تسبب لهم العثار والهلاك.

ثم إذا اعتبرنا كلمة (بالحق) حالا من المفعول به يكون لها معنيان آخران:

المعنى الأول – إنا أرسلناك حال كون الحق والصدق معك. فلو كان ما عندك من تعليم هو من وضع الإنسان لكان هناك احتمال كبير لوجود الخطأ أو الكذب أو أي عيب آخر؛ ولكن ما أوتيت من تعليم فهو منزّه عن كل عيب. وما دام كذلك.. فلا بد من الاعتراف بأنه من عند الله تعالى.

والثاني- إنا أرسلناك حال كونك أحق بالرسالة والتشرف بكلام الله. وبذلك ردّ الله على اعتراضهم: لولا تأتينا آية، وقال: حيث إنك كنت أحق بالرسالة لذلك أرسلناك. ولو كان هؤلاء أصحاب هذا الحق لآتيناهم إياه وأرسلناهم لهداية الناس.

وهنا سؤال: ما هو موقف باقي الناس؟ فردّ الله بقوله (بشيرا ونذيرا). إن الناس نوعان: فمن آمنوا بكلامنا الذي أنزلناه على هذا الشخص وقد كان أحق الناس به.. فإن لهم بشارات وأخبارا سارة. وأما الذين يرفضون فيدخلون في الكاذبين وينالون نصيبهم من العذاب.

(بشيرا ونذيرا) يعني: أنك تحمل للبعض أخبارا سارة، وللبعض الآخر وعيدا وإنذارا. فهذه الآيات نوعان: منها ما ينجي البعض، ومنها ما يهلك البعض الآخر. والآيات التي تحمل البشرى تأتي أولا، ثم تليها الآيات التي تحمل إنذارا: لأنك أوّلا بشير ثم نذير؛ فمن سنة الله تعالى أنه إذا أراد نجاة فريق وهلاك آخر فإنه يُظهر الآيات المنجيات لينجو من أراد.

وخلاصة القول أن الآية تقول: يا محمد إنك تتصف بصفات أربع:

أولا – إنك مرسل بالحق.

ثانيا- إنك بشير للذين سوف ينجون من العذاب بالإيمان بك.

ثالثا- إنك نذير للذين سوف يهلكون بسبب الكفر بك.

رابعا- تنزل عليك الآيات لأنك أرسلت بالحق.

وبقوله تعالى (ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم) يعلن الله أن رسولنا مكلّف بتبليغ الرسالة، لا بإجبار الناس على قبولها. فإذا ما استحق البعض عذاب النار نتيجة كفرهم برسالتنا فليس عليه من شيء. وكأن الله تعالى يقول: إنا أرسلناك بالحق، فمن آمن بك نجا وأفلح، ومن كفر بك خسر وهلك. وهذه هي الآيات والعلامات

التي أظهرنا لإثبات صدقك. ولكن الدليل إنما ينفع من يريد الحق، أمّا من أصرّ على الإنكار في كل حال فلن ينفعه الدليل شيئا.. كما حدث لحبرين يهوديين زارا النبي ﷺ ذات يوم، وعند رجوعهما سأل أحدهما الآخر: ما رأيك فيه؟ قال: أرى أنه على الحق، ولكني لن أصدِّقه ما حييت. فقال الأول: وهذا عين ما انتويتُه أنا أيضا (السيرة لابن هشام، عداوة اليهود، شهادة صفية).

يقول الله: إننا قد خلقنا كل إنسان حرا، وخيّرناه تماما في قبول الحق أو رفضه، وما دام هناك فئة من الناس لا تنفك تصر على الإنكار على كل حال.. فكيف يمكن يا محمد، أن تُلام على إنكارهم؟!

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢١)

شرح الكلمات:

أهواء –يطلق الهوى لغة على أمنية رذيلة مُنحطة، وهو من الهوْء: أي ما سقط في مكان عميق القعر (الأقرب). وفي ذلك إشارة إلى أن أمانيهم تحط من شأنهم وتذلهم. إن من ميزة القرآن الكريم أنه يراعي المعاني الحقيقية والمجازية في استعمال الألفاظ.

وليّ- الولي الذي يدبر أمور أحد. ويُطلق على صديق يكفل تدبير أموره. ومن معاني الولاية الحكم (المنجد)، فالولي هو من يكون وكيلا وكفيلا لأحد.

نصير- النصير هو المساعد. والفرق بين الولي والنصير أن الولي يتولى تدبير أمور الغير كلية، أما النصير فيساعد صاحب العمل في تدبيره.. ذلك لأن العون على نوعين: الأول –أن يتحمل الإنسان عبء مسئولية عمل بالتمام نيابة عن صاحبه، والثاني – أن يتحمل جزءا من المسئولية.

التفسير: تبين الآية السبب الحقيقي للخلاف، موضحة أنه لن يرضى اليهود والنصارى عنكم حتى تقبلوا قولهم. ولكن هذا مستحيل..لأن الله تعالى قد هداكم بنفسه إلى الحق. وما دام هؤلاء لا يتضعضع إيمانهم.. مع أن إيمانهم تقليدي لا يتأسس على أدلة وبراهين، وإنما يقوم على العصبية، ولا يؤمنون بالحق بعدما تبين لهم، فكيف يمكن لمن هداه الله إلى الحق أن يتركه بعد ما تبين له.

(قل إن هُدى الله هو الهدى) أي قل لهم: اتركوا هذا الإيمان التقليدي، واتبعوا بدلا منه هدى الله الذي تحقَّق صدقُه.. لأن الهدى الحقيقي هو ذلك الذي يأتي من عند الله تعالى. أما أن يختلق الإنسان من عنده معايير ومقاييس للهدى ثم يعتبرها مدارًا للنجاة.. فهذا كذب ليس من الحق في شيء، وإنما تُكتب النجاة لمن يتقبل الهدى الذي يأتي من عند الله، ويعمل به.

قوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) وإن كان يخاطب الرسول ﷺ إلا أنه في الحقيقية موجه إلى أتباعه. فإن الرسول أسمى وأرفع من أن يظن أنه يعصي الله في شيء، فقد أوضح الله في القرآن الكريم شأنه ﷺ فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (الأحزاب: ٣٢). وقال (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) (الأحزاب: ٢٢) إذن، لا يمكن أن يكون الخطاب موجها إلى الرسول ﷺ، وإنما هو لمتبعيه.

وتشير كلمة (أهواءهم) إلى أن الأماني السيئة تهوي بالمرء من المكانة السامية إلى السفلى، بينما تحدوه الأماني الحسنة إلى الرقي والازدهار. إذا تعثر أحد في الظلام وسقط عَذَرَهُ الناس، ولكن إذا سقط أحد وهو يعلم فلا يُعفى عنه. كذلك إذا أخطأ أحد لجهله بالحقيقة استحق العفو، ولكن الذي كفر بالحق بعدما تبين له فلا يستحق العفو ولا الصفح.

وقوله تعالى (ما لك من الله من ولي ولا نصير).. يبين أنه لن يجد أحدا يتحمل المسئولية كليا أو جزئيا.

وأشار بقوله (من الله) إلى أن الله تعالى إنما يمد بعونه من لا يكون تابعا لأهوائه النفسانية، بل يتبع هدى الله جل علاه.

الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢٢)

شرح الكلمات:

يتلون – من تلا يتلو: قرأ. فمعنى (يتلونه حق تلاوته):يقرءونه كما ينبغي أن يقرأ، أو أنهم يُعمِلون فكرهم ويتدبرون فيه أثناء قراءته كما يجب. تلا: اتبع (الأقرب)، كقوله تعالى (والقمر إذا تلاها) (الشمس:٣)..أي تبع الشمس. فالمعنى أنهم يتبعونه حق اتباعه ويعملون به كما ينبغي.

التفسير: لقد انخدع الناس وظنوا أن المراد بالكتاب هنا هو التوراة، ولكن هذا المعنى لا ينطبق هنا. لأن ذلك يعني أن الذين آتيناهم التوراة يتبعونها كما يجب الاتباع، ويؤمنون بها حق الإيمان، والحال أن اليهود لا يعملون بالتوراة، ولا النصارى يعملون بالإنجيل. فلا يكون المراد من الكتاب إلا الكتاب الذي يعمل به أهله.

ثم أن الله أخبر بأن التوراة والإنجيل لم يبقيا محفوظين في حالتهما الحقيقية، بل قد عبثت أيدي المحرفين بهما إلى زمن النبي ﷺ حيث قال عن اليهود (.. يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله)(البقرة: ٨٠).. أي أنهم يضيفون من عندهم بعض الأمور إلى التوراة، ثم يقولون إنها من وحي الله. وبعد هذا التحريف الشديد لا يمكن الإشادة بهؤلاء والثناء عليهم.. وإلا فلم يبق هناك أية حاجة لنزول القرآن، واعُتبر تعليم التوراة والإنجيل كافيا لهداية الناس. فالواقع أن المراد من (الكتاب) هنا هو القرآن الكريم، وليس التوراة.

وقد انخدع المفسرون هنا لأن الله تعالى قد سمّى اليهود في مواضع أخرى (أهل الكتاب)، ولكن كان على المفسرين أن يراعوا دائما القرائن في تحديد ماهية الكتاب. لو لم يكن هذا اللفظ مشترك المعنى لما كان هناك أي نقاش، ولكن ما دام اللفظ مشترك المعنى بين هؤلاء والمسلمين.. كان من اللازم مراعاة القرائن ومراعاة الفريق الذي يصدّق عليه معنى الآية. وقد قال قتادة (الذين آتيناهم الكتاب) هم أصحاب رسول الله ﷺ.(تفسير ابن كثير، تحت هذه الآية).

الحقيقة أن الله تعالى يدين اليهود في هذه الآية ويقول لهم: إنكم نبذتم التوراة وراء ظهوركم، ولكن الله أعطى المسلمين القرآن الكريم، فهم يعملون به كاملا، ويمتثلون لكل أمر من أوامره لتوطيد دين الله. تزعمون أن ما عندكم هو الكتاب الحق الصادق، مع أنه لو كان كذلك لعملتم به، ولصرتم أهل صلاح، ولكنكم بأنفسكم تعترفون أنكم فسدتم. فكان لا بد من أن يأتي الله الآن بقوم يقيمون دينه من جديد ويظهرونه ببذل مالهم وراحتهم وأرواحهم. فما دام هؤلاء يُضحون بكل ذلك للإسلام فثبت أن هؤلاء هم أهل الحق، وأن الكتاب الذي يؤمنون به هو من عند الله، لأن الكتاب الذي يهب الهدى ويقيمه في الدنيا هو الذي يعتبر من عند الله تعالى.

وقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) يذكر إيمانا ليس تقليديا. الحق أن هناك نوعين للإيمان: الأول – ما يتم بالدليل، ولكن هذا النوع من الإيمان لا يصل بالإنسان إلى مقام الشهود والعيان، وإنما مثله أن يطيع الإنسان أوامر الملك أو الحاكم. والنوع الثاني هو إيمان الانكشاف والعيان. وعندما يحصل الإنسان على مثل هذا المقام في الإيمان يتم له وصال بالله تعالى، ويتحول إيمانه التقليدي العادي إلى إيمان حقيقي يصبح جزءا من نفسه، ويكسبه البشاشة القلبية، فلا يبقى بعده أي خطر للارتداد أو العثار.

وقوله تعالى (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) أيضًا يؤكد أن الكتاب هنا هو القرآن الكريم، وليس التوراة.. لأن المؤمن بالقرآن، المنكر لما يقدمه اليهود على أنه

التوراة لم يكن من الخاسرين.. وإنما العاملون بتلك التوراة والرافضون للقرآن الكريم كانوا هم الخاسرين. إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي إذا رفضه الإنسان صار من الخاسرين، ولكن المؤمن به والرافض لما سواه مما يقدم على أنه كتب سماوية لا يكون من الخاسرين، وإنما من المنتفعين والحائزين على رضوان الله تعالى.

الترتيب والربط:

في الآية ١١٤ بين الله سيئة أخرى لدى اليهود والنصارى.. أنهم تعصبا وعنادا يرمون بعضهم البعض بالشر والفساد، ولا يعترفون بأي خير في الفريق الآخر، مع أنهم -لا بد- مشتركون في بعض الأمور الحسنة.. لاشتراكهم في الإيمان بكتاب واحد.

وفي الآية ١١٥ بين أن هذه البغضاء قد اشتدت وتأصلت بينهم لدرجة أنهم لا يطيقون رؤية بعضهم البعض وهم يتعبدون. ولا يسمحون للفريق الآخر بأداء عبادته في معابدهم، مع أن الواجب عليهم أن يكونوا حذرين محتاطين تماما في شأن أماكن عبادة الله تعالى.

وفي الآية ١١٦ نصح الله المسلمين بعدم الخوف من معارضتهم وعداوتهم، لأن هؤلاء المعارضين صاروا محط غضب الله، فأينما اتجه المسلمون فلسوف يهيئ الله الأسباب لنجاحهم وفلاحهم.

وفي الآية ١١٧ نبّه المسيحيين – وهم فرع من اليهود – إلى معاصيهم ليعرفوا لماذا لم يولد فيهم النبي الموعود، ولماذا حُرِموا من نعمة كلام الله تعالى.

وفي الآية١١٨ دحض بثلاثة أدلة العقيدة المسيحية الخاطئة ببنوة المسيح لله.

وفي الآية ١١٩ رد على اعتراضين منهم، أولهما: إذا كنا على خطأ فلماذا لا يخبرنا الله بالإلهام والوحي، وثانيهما: إذا كنا خاطئين فلماذا لا يعذبنا الله على معارضتنا لهذا النبي.

وفي الآية ١٢٠ بين أن كل رسول يكون بشيرا ونذيرا، فلا بد أن يأتي العذاب ولكن على مهل.

وفي الآية١٢١ بين السبب الحقيقي لمعارضتهم المسلمين، وهو أن تعاليم القرآن لم تنـــزل بحسب أهواء هؤلاء المعارضين. ورد على ذلك بأن الصراط المستقيم هو ما يقيمه الله عليه.. فالذي يرى طريق الهدى ومع ذلك يركن إلى الضلال فلا بد أن يعاقب.

وفي الآية ١٢٢ بين أن المسلمين الذين أعطيناهم القرآن ويعملون به تماما سوف يحققون الفلاح في آخر المطاف، ولن يكون من الخاسرين إلا الذين يرفضون هذا الكتاب ولا يؤمنون به.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٣).

التفسير: الموضوع الذي انتهى بالآية السابقة كانت بدايته بقوله تعالى (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)حيث ذكر قصة آدم ليشير إلى أن نزول كلام الله قد بدأ واستمر منذ بداية الإنسانية. ثم تناول النعم التي أنعمها على بني إسرائيل، وقال (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون) (البقرة: ٤١).. ليبين أن النبوة قد بدأت بآدم واستمرت إلى زمن موسى، ثم استمرت بموسى ووصلت إلى زمن عيسى – عليهم السلام. فما دامت النبوة قد استمرت وبدون انقطاع إلى زمن قريب منكم أيها اليهود.. فكيف تظنون أن هذه السلسلة – التي بدأت منذ بداية الإنسانية –قد انتهت الآن، وترفضون بهذا رسالة محمد ﷺ؟!

إن من أسلوب القرآن الكريم أنه عندما يُنهي موضوعا فإنه يضع هناك قرينة وعلامة إيذانا بانتهائه وبداية موضوع جديد. وهنا أيضًا قال الله (يا بني إسرائيل اذكروا

نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين).. أي بعد كل هذه الأمور التي ذكرناها أمامكم.. تذكروا كيف أكملت عليكم نعمتي، وفضلتكم على الأمم الأخرى..أي أنزلت عليكم نوعين من الإنعامات. أولا: وهبت لكم نعمة النبوة، وثانيا: بهذه النعمة فضلتكم على الأمم كلها. فالله تعالى يذكرهم هنا مرة أخرى بنعمه المتواترة المتوالية ليقول لهم: لا حق لكم في الشكوى إذا وهبنا نعمة النبوة لبني إسماعيل. لقد وفّى الله وعده معكم، والذي وفّى بوعده لكم لابد أن يفي بوعده أيضًا لبني إسماعيل.. لأن الله قد وعد إبراهيم أنه سوف يعامل ابنيه معاملة حسنة (تكوين ١٥،١٧)، وما دام قد وفّى بوعده مع أحدهما فلا بد أن يتم الوفاء مع الآخر؛ ولا محل للشكوى من ذلك.

قوله تعالى (وأني فضلتكم على العالمين).. من أسلوب القرآن أنه إذا بعث الله في قوم نبيا، وشرَّفهم بنعمة وحيه.. فإنه يعبر عن ذلك بقوله (فضلتكم)، لأن علم الوحي أفضل من جميع العلوم. العلوم الأخرى معرضة لاحتمال الأخطاء، أما علم الوحي فلا يمكن أن يتسرب إليه الخطأ، ولذلك فالأمة التي تصبح مهبطا لوحي الله تُفضل على الأمم الأخرى.

مع العلم بأن كلمة (العالمين) لا تعني أمم العالم كلها، وإنما المراد فقط الأمم التي لم تفز بنعمة النبوة والوحي.. لأن الله تعالى يبين هنا أن وحي النبوة هو سبب الأفضلية. فالأمم التي تلقت وحي النبوة من الله لا تدخل تحت كلمة (العالمين) هنا؛ فلا يمكن القول بأن اليهود أفضل من الأمم الأخرى، أو أن غيرهم أفضل منهم.. لأن الله تعالى استخدم هذه الكلمات لأمم كثيرة، فقد قال: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) (آل عمران: ٣٤). فإذا كان آدم أفضل من العالمين فلا يمكن أن يكون نوح أفضل من العالمين. وإذا كان نوح أفضل من العالمين فلا يمكن أن يكون آدم أفضل من العالمين في وقت واحد. وإذا كان نسل موسى أفضل من العالمين فلا يمكن أن يكون آل إبراهيم أفضل من العالمين، وهلم جرا.. فإما أن الآية تعني أن هؤلاء القوم كانوا من معاصريهم، أو أن من

يتشرف بوحي الله أفضل ممن لم يتشرف به. إن الوحي له عالم واحد، لأن الطريق إلى الله واحد، ولكن الكفر عوالم، وأفراد هذه العوالم ينسون وحي الله النازل وينسبون أنفسهم إلى أمور باطلة.. وبدلا من أن ينتموا إلى نبي ينتمون إلى فلاسفة، كما فعل كثير من النصارى حيث انتسبوا إلى الفلاسفة واتبعوهم، وكما مال بعض المسلمين شيئا فشيئا إلى الفلسفة اليونانية. مع أن كل أمة كانت بدايتها بالدين، ولكن من حيث الأفراد فإن الملايين لا يتبعون أي كتاب، كذلك المسلمون فإنهم رغم ادّعائهم اتباع الوحي السماوي، إلا أن الملايين منهم غافلون عن الدين ويتبعون الفلسفة. وباختصار: في كل الأمور العلمية والأخلاقية والعقائدية تجدون أن الوحي أفضل مما يقوله أصحاب الفلسفة.. أقوالهم أضعف وقول الله هو الأقوى والغالب.

فقوله تعالى (فضلتكم على العالمين) شرح لمعنى النعمة، حيث بين أن المراد منها بعث سلسلة من الأنبياء والرسل في بني إسرائيل. كما علم الله في سورة الفاتحة المؤمنين دعاء (اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم)، ثم فسر المنعم عليهم بقوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) (النساء: ٧٠).

فما دام كمال النعمة يتوقف على الوحي لذلك قال الله: إنني قد فضلتكم بإنزال الوحي وبعث الأنبياء على الأمم الأخرى التي لم تحظ بالوحي. هذه الفضيلة تمت لكم بنعمة الوحي فقط، والآن فضَّلتُ المسلمين عليكم بنعمة الوحي، فإذا رفضتموه فسوف تلقون نفس المصير الذي تلقته الأمم التي لم تحظ بالوحي أمامكم. كان بنو إسرائيل رأوا وجربوا أن كبار الفلاسفة جاءوا أيام موسى ليوجهوه، ولكنهم انهزموا أمام التوراة. لذلك يقول تعالى: إنكم إذا واجهتم القرآن الكريم فلن تنفعكم عقولكم، ولا بد أن تخسروا هذه المواجهة.

وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٤)

التفسير: لقد سبق أن وردت مثل هذه الآية باختلاف بسيط في الكلمات حيث قال تعالى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم يُنصرون) (البقرة: ٤٩). وهناك ثلاثة فروق بين هاتين الآيتين:

الأول: أن الشفاعة ذُكرت قبل العدل في آية ٤٩، بينما ذكر العدل أولا ثم الشفاعة في الآية الحالية.

الثاني: وردت عبارة (ولا يؤخذ منها عدل)في الآية ٤٩، بينما قيل (ولا يقبل منها عدل) في الآية الحالية.

والفرق الثالث أنه قيل (ولا يُقبل منها شفاعة) في الآية ٤٩، أما في هذه فقيل (ولا تنفعها شفاعة).

ذلك أن الآية الأولى جاءت قبل أن يعدد الله على بني إسرائيل عيوبهم ومفاسدهم، ومن الأمور الطبيعية أن الإنسان إذا لم تنكشف عيوبه فإن آماله تكون واسعة كبيرة، ويكون اعتماده كبيرا على نصرة آبائه وكباره، لذلك قدَّم الله في الآية الأولى الشفاعة على العدل. كان اليهود يأملون أن ينقذهم إبراهيم من العذاب بشفاعته، والذي يرجو شفاعة كباره لا يكون مستعدا لتقديم العدل والبديل. يظن أنه سينال بغيته دون ذلك. ولكن هذه الآية جاءت بعد أن عدّد الله على اليهود عيوبهم من عصيان ومعارضة للأنبياء بداية من الآية ٤٨ إلى آيتنا هذه، فكان لا بد أن تنكشف عليهم حالتهم الفاسدة، وتزول عنهم آمالهم في شفاعة أنبيائهم. فكان الترتيب الطبيعي يقتضي أن يقدَّم العدل على الشفاعة هنا، لأنهم الآن لا يمكن أن يركزوا على الشفاعة بعد أن تضاءلت آمالهم كثيرا، وإنما بقي أمامهم العدل، لعلهم ينجون من العذاب بتقديم الفدية والبديل.

أما السبب وراء الفرق الثاني فهو أن كلمة "القبول " أشرف من كلمة "الأخذ"، لأن في القبول نوعا من التكريم. مثلا نقول: قَبِلَ المَلِكُ الهديةَ، ولا نقول: قبل الفقير عطيةَ الملك. ولكن هذا الشرف لا يوجد في كلمة "الأخذ".. لأن الأخذ يعني تناول الشيء سواء كان أدنى أو أعلى أو مساويا. فكلمة "أخذ" تشير إلى أن الآخذ مضطر للأخذ ليسوّي الحساب، بينما كلمة القبول تشير إلى أن المعطي يعطي بالإصرار، بينما يتردد المتلقي في الأخذ. وهذا يحدث في حالة القنوط من جهة المعطي. عندما كانت آمال اليهود كما هي و لم تعدَّد عليهم عيوبهم قال الله (ولا يؤخذ منها عدل)، أما هنا فإنهم يكونون في حالة القنوط واليأس الشديدين، لذلك قال الله (لا يُقبل منها عدل).. أي أنهم سيحاولون تقديم الفدية، ولكن لن تقبل منهم.

أما الفرق الثالث فهو أيضًا ضروري ومناسب للحال. حينما لم تكن عيوب اليهود قد عُدِّدت عليهم كانوا يأملون أن يلتمسوا من أنبيائهم فيشفعوا لهم فتُقبل شفاعتهم، فرد عليهم عندئذ أن شفاعتهم لن تقبل. والآن بعد أن انقطعت آمال اليهود هذه وكُسرت هممهم، كان من الممكن مع ذلك أن يأملوا في شفاعة أنبيائهم.. بمعنى أنهم يرحمون حالَهم ويشفعون بأنفسهم لأجلهم، فدحض الله زعمهم هذا وقال (لا تنفعها شفاعة).. أي أن شفاعة الشافعين سوف تنفع غيرهم، ولكن هؤلاء اليهود والعصاة فلن تنفعهم شفاعة، لأنه لن تتم في حقهم أي شفاعة من أي شفيع.

وقوله تعالى (لا تنفعها شفاعة) لا يعني هنا أن هناك شفاعة تتم في حقهم ولكنها لا تُقبل، وإنما المراد أنه لن يتشفع أحد في حقهم بدون إذن.. لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذن..منذا يشفع عند الله بدون إذنه؟ فما دام الله لن يأذن لأحد فيشفع لهم.. فلن تتم أي شفاعة، وإذن لن يستفيدوا من باب الرحمة هذه.

فكل هذه التغيرات في الكلمات والأسلوب في الآيتين كانت بحسب الحال وإنها دليل عظيم على كمال القرآن في ترتيبه أيضًا.

الحقيقة أن الأمم في زمن انحطاطها.. عندما يضعف جانب العمل الصالح فيها، تركِّز على شفاعة الأنبياء في حقها. مثلا.. إننا لا نجد في أقوال الصحابة أي ذكر بأننا ننال النجاة بشفاعة من النبي ﷺ .. وإنما نجد عندهم التركيز على العمل بالقرآن وبذل التضحيات والتمسك بالبر والتقوى. ولكن كلما بعُد الزمن عن عصر الأنبياء ركّز الناس على شفاعة الأنبياء ويقولون إنهم سيدخلون الجنة بها. ولما كان اليهود قد اعتمدوا وارتكنوا على شفاعة أنبيائهم في حقهم، ردَّ الله عليهم أن ظنّهم هذا لن ينفعهم شيئا. الذين يظنون أنهم سوف ينجون من النار لأنهم أولاد إبراهيم أو موسى وأنهما سوف يشفعان لهم.. إنهم على خطأ.

وبقوله تعالى (ولا تنفعها شفاعة)قد لام اليهود وأخجلهم قائلا: بأي وجه ترجون شفاعة أنبيائكم في حقكم؟ هل أطعتم موسى وسليمان وعيسى وغيرهم من الأنبياء؟ لقد رفضتم الجميع وخالفتم كل واحد، واليوم تقولون لمحمد إنه ليس منا ولذلك لن نصدقه. السؤال: من هو ذلك النبي الذي لم تعارضوه؟ لقد خاصمتم كل نبي، وكذبتم كل رسول؛ وما دام التكذيب دأبكم فمنذا الذي يشفع لكم؟ هل هو موسى.. الذي قلتم له (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) (المائدة:٢٥)؟ أم سليمان.. الذي كفرتموه ونسبتم إليه الشرك؟ أم عيسى الذي اعتبرتموه ملعونا؟ منذا الذي ترجون في شفاعته؟

وللعلم، إن الشفاعة إذا تمت في حق أحد نال نجاة كاملة ودخل الجنة، ولكن الأعمال تنفع الإنسان جزئيا.. أي تنفع فقط أعماله الصالحة. فالله تعالى يقول: لن ينتفعوا نفعا قليلا.. حيث لا أعمال صالحة لهم، ولا نفعا كاملا بالشفاعة.

كانت الصورة الثالثة أن يعفو الله عنهم بفضله، ولكنه يقول (ولا هم يُنصرون).. أي لن يتلقوا نصرة من الله تعالى. فقد نفى كل السبل الثلاثة لنجاتهم: فلا تقبل في حقهم شفاعة أنبيائهم.. أي لا تتم لهم، ولن تنفعهم أعمالهم، كما لن يتلقوا نصرا من الله. كل الطرق مسدودة أمامهم.

وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٥).

شرح الكلمات:

ابتلى –الابتلاء يتضمن أمرين: أحدهما تعرُّف حال أحد والوقوف على ما يُجهل من أمره: والثاني كشف جودته ورداءته. وإذا نُسب هذا الفعل إلى الله كقولنا: ابتلى الله فلانا، فلا يراد إلا المعنى الثاني.. أي أنه أظهر كفاءات خفية في فلان ... لأن الله هو عالم الغيب ولا يحتاج ليطلع على شيء خفي في أحد (المفردات).

كلمات – الكلمة تعني الحكم، والحكم يشمل الأوامر والنواهي (المفردات).

إماما – الإمام: المؤتم به؛ الذي يُجعل أسوة وقدوة في قوله وأفعاله. والمعنى الثاني للإمام هو الكتاب (المفردات)، لأن فيه من الأحكام ما يُتَّبع.

التفسير: يقول الله تعالى: تذكروا عندما أردنا أن نبرز الخير والتقوى في إبراهيم، ليطلع إبراهيم على كفاءات روحية خفية فيه. أمره الله بعض الأوامر لإظهار كفاءاته فأطاع إبراهيم ما أمر الله به، وهكذا علم الناس أن الكفاءات والطاقات العالية للطاعة في إبراهيم هي نادرة المثال ولا توجد في أحد. فمثلا أمره الله أن يذبح ابنه البِكر في سبيله، وعندما استعد للعمل بهذا الأمر ظاهرا قال الله له: ليس هذا هو مرادنا، بل مرادنا غير ذلك. ثم ظهرت إرادة الله هذه حين أمره أن يترك هاجر وإسماعيل في واد غير ذي زرع. فذهب بهما إلى هناك وتركهما، وهكذا نجح في هذا الامتحان، وعرف العالم أن إبراهيم يلبي كل ما يأمره الله به.. مهما كان هذا الأمر في بادئ النظر مروعا ومخيفا.

قيل هنا (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات)، و"كلمات" صيغة جمع تدل على الكثرة، مع أن المشهور عنه حادث واحد، وهو حادث الإقدام على ذبح ابنه. ولكن التلمود يكتب أن إبراهيم قد ابتُلي عشر مرات (التلمود Babylonian Talmud, V١p١٠٨).

وفي قوله تعالى (إني جاعلك للناس إماما).. لا يراد بالإمامة النبوة، لأن إبراهيم كان قد نال النبوة من قبل. وإنما المراد أنه سيكون نموذجا وأسوة للعالم، وسوف يتبعه الناس بكثرة. وكلمة (للناس) تشير إلى مجموعة كبيرة من الناس.

والحق أن هذا وعد لإبراهيم يتعلق بالمستقبل، وإلا لم يكن معه في ذلك الزمن إلا قليل من الناس. انظروا اليوم فإنه يعتبر إماما ومقتدى في معظم العالم، ويذكره الناس بكل تقدير واحترام، كل نبي يكون أسوة لقومه لا شك، ولكن لا يكون كل نبي أسوة للعالم كله، ولكن إبراهيم هو الوحيد بين الأنبياء السابقين (عليهم السلام) الذي يذكر بين الأقوام بالتبجيل والاحترام. خذوا مثلا المسيحيين، فأنهم لا يحترمون موسى كما يحترمون إبراهيم، ويذكرون سيدنا عيسى بوجه خاص بالتبجيل لأنهم يعتبرونه من ذرية إبراهيم، وإلا فإنهم لا يتورعون عن اتهام الأنبياء الآخرين بالسرقة والخيانة (يوحنا ١٠:٨). ولكنهم يحترمون إبراهيم كثيرا، وهذا هو معنى (إني جاعلك للناس إماما).. أي سنجعلك بحيث يقتدي الناس بأقوالك وأفعالك.

ثم انظروا إلى الحج الذي هو منسك بارز بين العبادات الإسلامية. هذا الحج أقامه إبراهيم، وعن طريق الحج يذكره العالم إلى اليوم. كذلك إنه يذكر عند تقديم الأضاحي. إننا من الأمة المحمدية.. ومع ذلك فإننا نذكر تضحية إبراهيم عند كل عيد للأضحية. ولكن ليس في الإسلام أي يوم معين لموسى وعيسى يُذَكِّرنا بفعلهما ويجدد ذكراهما، ولكن لإبراهيم ولذكراه يوم خاص عند المسلمين أيضًا.

يقول إخواننا الشيعة إن الله تعالى قال لإبراهيم (إني جاعلك للناس إماما) في وقت كان إبراهيم قد صار نبيا، وهذا يدل على أن منصب الإمام أرفع من منصب النبي.

صحيح أن إبراهيم أعطي الإمامة بعد النبوة، ولكن السؤال هنا هو: هل الإمام من حيث معناه اللغوي يعني منصبا يتلقاه الإنسان بعد النبوة؟ إذا كانت الإمامة منصبا يتلقاه بعد النبوة وكانت أرفع من النبوة، فلا بد لنا من التسليم بأن بعض الأنبياء لا

ضرورة لطاعتهم.. لأن اللغة تعلمنا أن الإمام هو المؤتم به والذي يطاع، وأن إبراهيم لم يكن من الضروري أن يطيعه الناس قبل أن ينال منصب الإمامة وإن كان نبيا. وهذا غير صحيح، لأن الله يقول (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) (النساء: ٦٥). وهذا يدل على أن الله قد فرض على الناس طاعة كل نبي بمجرد أن يصبح نبيا. وبناء على ذلك لم تبق الإمامة منصبا منفصلا عن النبوة، وإنما صارت الإمامة صفة لازمة للنبي.

ثم يعلمنا القرآن أن هناك نوعا من الإمامة ينالها الإنسان قبل النبوة أيضًا؛ يقول الله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (النساء: ٦٠). فالله ذكر نفسَه أولا ثم الرسولَ ثم ذكر أولي الأمر الذين ليسوا من الرسل، مما يعني أن هناك أُناس ليسوا من الأنبياء والرسل ولكن طاعتهم ضرورية. فإذا كان الإمام هو المطاع، فمثل هذه الإمامة صارت أدنى درجة من النبوة أيضًا. أما الإمامة التي تستلزم النبوة فلا ينالها الإنسان إلا مع النبوة. يمكن أن يكون الإنسان إماما ولا يكون نبيا، ولكن لا يمكن أن يكون الشخص نبيا ورسولا ثم يحرَم الإمامةَ كما يظهر من قول الله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله).

والآن لا بد لنا من التسليم بأحد الأمرين: إما أن نقول بأن الله تعالى قال لإبراهيم (إني جاعلك للناس إماما) قبل أن ينال النبوة، أو أنه قال له ذلك بعد النبوة. فإذا كان ذلك بعد النبوة فلا يمكن أن تكون الإمامة هنا بالمعنى العام، بل لا بد لنا من قبول معنى آخر. والواقع أن هذا الوعد تم بعد أن صار نبيا، لأن الله يقول (وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن) أي اختبره بكلمات فحقق ما أُمر به من الله، ونعرف من تاريخ الأنبياء أنهم لا يمتحنون إلا بعد نيل النبوة لا قبلها. وبناء على سنة الأنبياء هذه لا بد لنا من الإقرار أن هذا الإلهام والوعد كان بعد النبوة.

الآن نرى هل يمكن أن يراد بهذا القول معنى آخر. فلنتذكر أن كل كلمة تحمل معنيين: المعنى النسبي والمعنى العادي. والمعنى النسبي يتغير دائما بحسب النسبة، مثلا: عندما نقول (رئيس) فإنه عموما يعني شخصا له الفوقية على شخص أو أشخاص

آخرين. ولكن هذا الرئيس قد يكون على قرية أو على مقاطعة أو على إقليم وغير ذلك.. فهذه الكلمة تدل على سيادة أشخاص صغيرين وكبيرين.. فلا يتعين لها معنى خاص إلا بمعرفة النسبة. فإذا قلنا إنه (رئيس الكناسين) أو(رئيس العمال) أو (رئيس الجيش) يتعين المعنى المراد، ونعرف أنه ينسب إلى طبقة معينة، فهذه النسبة تغير المعنى.

ويوجد مثال في القرآن الكريم في كلمة (صِدّيق)، ومعناها الرجل كثير الصلاح. والرجل كثير الصلاح قد يكون نبيا وقد يكون غير نبي. فإذا كانت كلمة (الصديق) بمعناها العام فدرجة هذا الصديق تكون أدنى من درجة نبي، ولكن عندما تطلق هذه الكلمة على نبي فإنها تشير إلى خصوصية معينة في هذا النبي. كما ورد في القرآن الكريم عن سيدنا إدريس (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقا نبيا) (مريم: ٧٥). مع أن الله يقول في موضع آخر (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)(النساء: ٧٠) وهنا وضع الله الصديقين دون النبوة. كذلك ورد عن إسماعيل (كان عند ربه مرضيا) (مريم: ٥٦).. ولكن الله تعالى ذكر هذه الدرجة تحت النبوة في قوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) (الفجر: ٢٨-٢٩). فهناك وصف كل مؤمن ذي نفس مطمئنة ويموت في حالة الإيمان بأنه (مَرْضِيّ). فلو كان معنى قوله تعالى (كان عند ربه مرضيا) أن كل شخص يرضى الله عنه يكون أعلى من النبي.. فلا بد لنا من التسليم بأن كل مؤمن ذي نفس مطمئنة أرفع مكانة من النبي! كذلك لا بد لنا أن نقول أن كل شخص أطلق عليه اسم "صديق" يكون أسمى درجة من النبي!

كما يقول الله عن أمة المصطفى ﷺ (قالت الأعراب آمنا. قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) (الحجرات: ١٥).. أي أن البدو يأتون النبي ﷺ ويقولون له: قد آمنا. فيقول الله لرسوله: قل لهم: لم تؤمنوا، ولكن لكم أن تقولوا: أسلمنا، ولم يدخل الإيمان في قلوبكم إلى الآن. وكأن الإسلام درجة بدائية

من الإيمان. ولكن الله يقول عن إبراهيم (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (البقرة: ١٣٢). هذا الأمر صدر إليه بعد النبوة، وعندما قال إبراهيم: أسلمت، أشاد الله بإسلامه كثيرا. مع أنه عندما قالت الأعراب (آمنا) قال الله لهؤلاء المدعين بالإيمان: لا تقولوا آمنا بل قولوا أسلمنا، لأن الإيمان لم يدخل إلى الآن في قلوبكم. وكأن إسلامهم دون الإيمان.

ولو أخذنا بموقف الشيعة لكان المعنى بأن كل من يدعي بأنه مسلم يكون أرفع درجة من النبي، لأن الله قال لإبراهيم بعد أن نال النبوة: كن مسلما، فقال إني أسلمت. وكذلك لو كان معنى الإمامة بعد نيل النبوة.. أن الإمام أكبر من النبي لاضطررنا إلى اعتبار كل مسلم أعلى درجة من النبي – دعْك من الإمام، لأن إبراهيم كما نال الإمامة بعد النبوة كذلك صار مسلما بعد أن نال النبوة. وفي هذه الصورة يكون كل مسلم أرفع درجة من النبي.

إذن فليست الإمامة وحدها أرفع درجة من النبوة، وإنما الإمامة التي ينالها النبي بعد النبوة شأنها شأن الإسلام.. فلا يكون إسلام كل شخص أسمى درجة من النبوة، وإنما يكون ذلك الإسلام الذي يصل إليه النبي بعد نيل النبوة أسمى درجة من النبوة. فكل شيء يتحدد بدائرته المستقلة. هناك إسلام هو أدنى من الإيمان، وهناك إسلام يناله الإنسان بعد الإيمان، وهناك إسلام يناله الإنسان بعد نيل النبوة أيضًا.

خذ مثلا كلمة (نقيب) التي تطلق على تلميذ يشرف على تلاميذ صفه. فهناك نقيب لصف ابتدائي، وهناك نقيب للصف الثانوي. هذا النقيب على الصف الأدنى لا يمكن أن يكون أعلى درجة من نقيب على الصف الثانوي.. وإن كان هو أيضًا نقيبا..بل إن علمه يكون دون علم طالب في الصف الثانوي. كذلك الحال بالنسبة للإمامة التي تكون بدون النبوة، فمثل هذه الإمامة لا تبلغ شأن تلك الإمامة التي ينالها الإنسان بعد نيله النبوة، فشتان بينهما. انظروا في المسلمين، فالذي يقودهم في الصلاة يسمى إماما، ثم إن الخليفة أيضًا يكون إماما، والنبي أيضًا يكون إماما، ثم علمنا القرآن دعاء يقول (واجعلنا للمتقين إماما) (الفرقان:٧٥).. أي اجعل بعض

المؤمنين الأتقياء مقتدين بي، واجعلني إماما لهم. فهل يعني ذلك أن من يدعو بهذا الدعاء يريد أن ينال درجة أرفع من درجة الأنبياء؟ لو كان هذا فلا بد لنا من التسليم أن هناك درجة أرفع من درجة الأنبياء يمكن أن ينالها الإنسان.. لأن الله علمنا هذا الدعاء؟ كلا، بل إن الشيعة أيضًا لا يتمسّكون بهذا القول.

فالحقيقة أن قوله تعالى (إني جاعلك للناس إماما) يعني أن يا إبراهيم، أنت نبي لقومك ولاشك، ولكنك ما دمت قد نجحت في كل هذه الاختبارات و لم يتزلزل قدمك، بل لبَّيْتَ أوامري بكل شجاعة، وأسكنت زوجتك وابنك في برية ليس فيها قطرة من الماء ولا قشة من الكلأ، وتقبلت الموت لنفسك ولأهلك، لذلك سوف أنعم عليك، وأجعل حدثك هذا نموذجا للعالم كله إلى يوم القيامة. كلما نلقِّن الناس الثبات في ميادين الابتلاء والاختيار.. سنقدم وقائع موقفك هذا مثالا ليتأسوا به.

ولنفس هذا السبب عندما قال الله تعالى (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) أردفه بقوله (إني جاعلك للناس إماما).. وإلا لو كانت الإمامة منصِبا منفصلا لما ذكره مع هذه الاختبارات ونجاح إبراهيم فيها. فقوله تعالى (إني جاعلك للناس إماما) بعد ذكر الابتلاءات ونجاح إبراهيم فيها إنما يشير إلى نفس الأمر، بأننا سوف نجعل حدث حياتك الجليل هذا نبراسا للسائرين في هذا السبيل، ونموذجا وقدوة للناس إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى (قال ومن ذريتي. قال لا ينال عهدي الظالمين). عندما قُطع لإبراهيم الوعد عن مستقبله، فكر أني ما دمت سأكون نموذجا للناس من بعدي، فيجب أن يكون هناك سبيل لهداية ذريتي، فقال: إلهي، أسألك أن تستُر أولادي أيضًا بيد رحمتك. فقال تعالى: حسنا، ولكن عهدي هذا لن يصل إلى الظالمين. ولا يعني ذلك أن كل ذريته ستكون ظالمة، وإنما يعني أن الأولاد على قسمين: قسم يكون ظالما، وقسم يكون مسلما مطيعا. ونفى الله وعده عن الأولاد الظالمين، وأقر استمرار النعمة في أولاده المطيعين.

و(عهدي) يمكن أن يُفسّر بطريقين؛ الأول: العهد بمعنى المعهود، أي أن هذا الشيء الذي أعدك به لن يناله الظالمون، والثاني: أنني لا أقطع أي عهد للظالمين، وإنما أقطعه لغير الظالمين.. أي الأمة التي تكون ظالمة في مجموعها سوف أنـــزع منها سلسلة النبوة.

يتبين من هذه الآية أولا: أن الله وعد إبراهيم أنه سوف يجعله إماما، وثانيا: أن إبراهيم التمس من الله تعالى أن يُوسع هذا الوعد لأولاده أيضًا، فوعده بذلك وعدا مشروطا، وقال له إن بعض أولادك سوف يتمتعون بهذا العهد، ممن لم يحرموا أنفسهم من هذه النعمة بسبب ظلمهم القومي. فما دام بنو إسرائيل مستحقين وفّى الله معهم هذا العهد، وعندما أصبحوا كقوم غير جديرين بالوفاء لهم بنعمة هذا العهد نقله الله منهم إلى الفرع الثاني من أولاد إبراهيم – وهم بنو إسماعيل.

لقد ذكرت التوراة أيضًا أن هذا العهد كان مشروطا، فقد ورد فيها قول الله تعالى لإبراهيم: (وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالكم عهدا أبديا. لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا. وأكون إلههم. وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختتن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختتن منكم كل ذكر في أجيالكم. وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يختتن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا. وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتُقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي) (تكوين ١٧:٧-١٤).

يتبين من هذه الفقرات أن العهد الذي عهده الله مع إبراهيم في أولاده كان مشروطا، وكان علامته الظاهرة الاختتان، وقد قيل فيه بوضوح تام لإبراهيم إن

أولاده الذين لن يعملوا بحسب هذا العهد لن يكون لله معهم عهد، ولن ينالوا تلك النعم التي وُعد بها إبراهيم في هذا العهد.

إن العلامة الظاهرة للعهد، أي الاختتان، استمر في بني إسرائيل إلى زمن عيسى، وورثت هذه الأمة نعم الله إلى ذلك الوقت. ولكن عندما جاء عيسى خرج الكافرون به من دائرة المنعم عليهم من بني إسرائيل، ولم يستحق هذه النعم إلا المؤمنون به. ولكن هؤلاء أيضًا أخلفوا الوعد وتركوا التمسك بالعلامة الظاهرة لهذا العهد وهي الاختتان. إذن فجزء من هذه الأمة حرم من هذه النعم بسبب رفضهم لعيسى، أما الذين آمنوا به فقد حرموا أنفسهم من هذه الأفضال الإلهية بتركهم الاختتان واعتبارهم الشريعة لعنة، فانتقل هذا العهد من بني إسحاق إلى بني إسماعيل.

وأرى أن نفس الأمر قد ذكر في هذا المكان بأن منصب الإمامة لن يناله بنو إسحاق، لأنهم كجماعة صاروا ظالمين. نعم سيناله بنو إسماعيل لأنهم كجماعة لن يكونوا ظالمين.. بل سوف يكون في كل زمن أناس يؤمنون بنـــزول وحي الله فيهم، ولأجل ذلك جُعل النبي ﷺ إماما لكل العالم. ومن بين أمته قد وُهب هذا المنصب والمقام في هذا الزمن لسيدنا المهدي والمسيح الموعود.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٦).

شرح الكلمات:

مثابة – المثابة مُجْتَمَع الناس بعد تفرقهم (الأقرب). وهي المكان الذي يكتب فيه الثواب (المفردات)، أي ذلك المكان الذي إذا زاره الإنسان أثيب عليه.

المثابة هنا إما أنها مفعول ثان، أي صيَّرنا البيت مثابة؛ أو أن المثابة حال.. أي جعلنا البيت حال كونه مثابة للناس، بمعنى: جعلنا الكعبة – وهي تتضمن في نفسها خصوصيات لأن تكون مثابة.

أمنا – الأمن: طمأنينة القلب؛ سلامة من الخوف. والإنسان عندما يكون محفوظا من الأخطار الظاهرة، ويكون قلبه مطمئنا.. فهذا هو الأمن الكامل.

من – لها عدة معاني، ووردت هنا في قوله تعالى (من مقام إبراهيم) بمعنى التبعيض أو أنها زائدة (معجم النحو للدقر). ولا يعني قولنا زائدة أنها لا تحمل معنى، وإنما (زائدة) اصطلاح نحوي يفيد أنها لا تستعمل بمعناها العام، وإنما وردت للتأكيد. و(من) هنا جاءت لتأكيد فعل (اتخذوا).

مُصَلّى- هو مكان الصلاة.

عَهِدَ- أوصاه وشرط إليه (الأقرب). و(عهد إليه) ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه (المفردات). فالمعنى أننا أوصينا إبراهيم وإسماعيل وفرضنا عليهما الالتزام بهذا الوعد.

الطائفين-الطائف الذي يزور مكانا ما مرارا، أو يمشي حوله (المفردات).

العاكفين-العاكف من يُقبِل على شيء ويلازمه على سبيل التعظيم، ومنه الاعتكاف (المفردات).

الركَّع- جمع راكع، وهو الذي يركع أو الذي يتمسك بالتوحيد (المفردات).

السجود- جمع ساجد، ومعناها الذي يسجد، أو الذي يطيع طاعة كاملة (الأقرب).

التفسير: البيت هو اسم للكعبة المشرفة. ويقال لها البيت لأنها تتضمن كل خواص البيت. ومثال ذلك قولنا: زيد الرجل.. والمراد أن زيدا يحمل كل الخصال التي يمكن أن توجد في شخص عاقل. فما هي خصوصيات البيت؟

أولا – يحفظ من السرقة والنهب،

ثانيا – مكان إقامة دائمة،

ثالثا –يحفظ مال الإنسان ومتاعه،

رابعا – يجمع الأقارب والأعزاء،

خامسا –مكان آمن إذا دخله الإنسان نجا من المصائب.

ولو تدبرنا في هذه الخصوصيات الخمس لوجدناها متوفرة في الكعبة المشرفة، فهي تستحق في الواقع أن تسمّى بيتا. فلو أخذنا معنى الحفاظة – فإن الناس يدمرون القلاع الحصينة ويفنون سكان المدن الكبيرة.. ولكن الكعبة المشرفة تتميز بأن الله تعالى وعد بحفظها على الدوام. كل من أراد أن يهاجمها شلّ الله يده أو كسرها. وما حدث لأبرهة مثال باق للأبد على ذلك.

كان أبرهة حاكما على اليمن من قبل الحكومة المسيحية في الحبشة، وأراد أبرهة أن يدمر الكعبة المشرفة لِيُكْرِهَ العرب على الحج إلى كنيسة في صنعاء بدل الحج إلى بيت الله الحرام، كي تنتشر المسيحية بينهم. وعندما اقترب من مكة بجنوده بعث رسولا له إلى أهل مكة يخبرهم أني ما جئت إلا لهدم الكعبة ولا أُكِنّ لكم أي عداوة، فإذا خلَّيتم بيني وبينها فلن أمسَّكم بسوء، وسوف أعود إلى بلدي بعد هدمها.

وعندما وصل رسوله إلى مكة سأل أهلها: من سيدكم؟ فقالوا: عبد المطلب. فجاء إليه وأبلغه رسالة أبرهة. فقال له سيدنا عبد المطلب: ما دام أبرهة لم يأت لحربنا فنحن أيضًا لا نريد محاربته. أما هذا البيت فهو بيت الله الذي وعد بحفظه، فإذا شاء أن يحمي بيته فهذا شأنه، أما نحن فلا نملك محاربة أبرهة وجنوده. فقال رسول أبرهة: إذا كنتم لا تريدون الحرب فلماذا لا تصحبني لمقابلة أبرهة، لأنه يريد مقابلة أحد رؤساء مكة، وهذا يسُرُّه وقد يكفه عن هدم الكعبة.

فاصطحب عبد المطلب بعض الرؤساء وأولاده وخرج للقاء أبرهة. وتأثر أبرهة بلقائه وعبّر له عن سروره بهذا اللقاء، وطلب منه أن يذكر له حاجته. فقال عبد

المطلب: لقد استولى رجالك على إبل للمكيين فيها مائتان تخصُّني فردّها عليّ. وعندما سمع أبرهة ذلك اغتاظ وقال: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني. أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه.. لا تكلمني فيه! قال عبد المطلب: أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت ربًّا يحميه. قال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك (السيرة النبوية لابن هشام، ج١،أمر الفيل). فاشتد غيظ أبرهة، وأمر برد الإبل لعبد المطلب، ولكنه أصر على المضي لهدم الكعبة. وقبل أن يهاجم جيش أبرهة الكعبة تفشى فيهم مرض الجُدري، وبدءوا يموتون كالكلاب الضالة.. وأخيرا دبت فيهم الفوضى والخوف وتراجعوا عن حصار الكعبة بعد أن مات ألوف في الوديان تائهين.

فتعني كلمة (البيت) أن الناس سوف يتمتعون فيه بالحماية الحقيقية. إنه بيت الله الذي لا يمكن أن يفلح أي عدو في الهجوم عليه.

والميزة الثانية للبيت أنه مكان إقامة دائمة، وبهذا المعنى فإن بيت الله هو الذي يستحق أن يسمى بيتا، لأن الحياة الأبدية إنما تُنال في بيت الله. والذين لا يذهبون إلى بيت الله تعالى لا حياة لهم، ولا قيمة لحياتهم. أما البيت الدنيوي فيقول الله عنه: (متاع قليل) وأما عن بيته فيقول (فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) (الفجر: ٣٠).. أي عندما يصبح الإنسان عبدا صادقا لله تعالى، ويصبح المسجد بيتا له فإنه يدخل الجنة. فهذا هو البيت الذي يمكن أن يُمتّع الإنسان بحياة أبدية.

والميزة الثالثة للبيت أنه مكان لادِّخار الأموال والأمتعة. وهذا البيت فيه ذخائر البركات الروحانية، وهو الذي يحفظها. أما الذخائر الأخرى مهما كانت غالية وقيِّمة فإنها تضيع، ولكن الوقت الذي يبذله الإنسان في عبادة الله تعالى فلا يضيع، بل كل لحظة يقضيها في ذكر الله وعبادته يحولها الله إلى آلاف النعم الروحانية، ويحفظها ذخيرة ويمتّع عبده بها.

والميزة الرابعة للبيت أنه مكان لاجتماع الأقارب كلهم. وهذه الخصوصية موجودة أيضًا في الكعبة المشرفة بصورة كاملة.. لأن مسلمي العالم أجمع يجتمعون هناك كل عام للحج، ويزيدون إيمانهم بالاجتماع مع إخوانهم.

ثم إن الكعبة المشرفة مكان لاجتماع الناس بشكل آخر. فالمكان الذي سيجتمع فيه الإنسان مع أقاربه وأحبائه هو الجنة، والمسجد ظل للجنة يجتمع فيه المسلمون خمس مرات يوميا، ويسجدون أمام ربهم، ويطلعون على أخبار بعضهم.

والميزة الخامسة للبيت أن الإنسان يتمتع فيه بالأمن عموما. وهذا أيضًا يتيسر في الكعبة المشرفة، لأن الأمن إنما يتيسر للإنسان فقط إذا انمحت كل النـــزاعات. والكعبة المشرفة هي المكان الوحيد الذي لكونه مركزا للتوحيد يمكن أن يكون ذريعة لاتحاد العالم كله وجمعهم حول مركز واحد.

فالكعبة المشرفة هي البيت الحقيقي والكامل في الواقع، إذ تتمتع بكل الخصوصيات التي ينبغي أن تكون في البيت.

وقوله تعالى (مثابة للناس وأمنا)؛ المثابة هي مكان اجتماع الناس بعد تفرقهم. لقد ذكر هنا بأن بيت الله قد أقيم لكي يجمع العالم كله على مركز واحد، وعن طريق هذا البيت يجتمع مرة أخرى كل أولئك الذين تفرقوا.. بمعنى أن هذا البيت متعلق بدين عالمي، إنه سوف يكون سببا لتوحيد العالم كله.

لا شك أن الأنبياء وحَّدوا الناس في زمنهم، ولكن إذا كانوا من جانب يوحدون أفراد قوم ما.. فإنهم من جانب آخر كانوا يسببون الاختلاف مع أمم أخرى من العالم. فمثلا كان من الضروري لبني إسرائيل أن يتبعوا موسى فقط، وكان على أتباع كرشنا أن يتبعوه وحده، وكان على الفرس أن يتبعوا زردشت وحده، لذلك إذا كانوا قد وحدوا أقوامهم من جهة فإنهم تسببوا في الخلاف بين الأقوام الأخرى. ولكن الكعبة المشرفة وحدها التي تحمل خصوصية أنها جامعة لأمم العالم كلها على مركز واحد، فقد أعلن النبي ﷺ بأنه قد بعث للعالمين (الأعراف: ١٥٩)، ثم أعلن

أنه سوف يُجمع على يده كل الأمم والجماعات المتفرقة في دين واحد. وانظروا كيف تحقق هذا النبأ بطريقة عجيبة ومدهشة. منذا الذي يمكن أن ينبئه بجمع الناس هكذا إلا الله تعالى؟ أما الذي قُدّر للنبي ﷺ في مستقبل الأيام فإنه أكثر من ذلك كثيرا.. فقد أعلن سيدنا المهدي والمسيح الموعود أن الله تعالى سوف يجمع عن طريقه الأمم كلها، وسوف يأتي وقت يصبح فيه الأشرار كالمنبوذين. فقد قال (لقد خطط الشيطان لإهلاك آدم واستئصاله، وطلب من الله المهلة فأمهله إلى يوم الوقت المعلوم. وبسبب هذه المهلة لم يقضِ عليه أي نبي. أما الوقت الذي حُدِّد لقتله وهلاكه فهو أن يقتل على يد المسيح الموعود. كان ينطلق في الأرض كاللصوص وقطاع الطرق ولكن حان هلاكه الآن. إلى اليوم كان هناك قلة من الأخيار وكثرة من الأشرار، ولكن سوف يهلك الشيطان ويكثر الأخيار، أما الأشرار فسوف يصبحون أذلة كالمنبوذين.. وعِبرة للآخرين) (جريدة الحكم. مجلده عدد٣٤، ١٩٠١/٩/١٧).

أرى أن زمن تحقق هذا النبأ القرآني بصورة كاملة هو زمن المهدي والمسيح الموعود، لأنه في شخصه اجتمع بنو إسحاق وبنو إسماعيل. فنرى أن هذا النبأ يتحقق بالفعل بعد ثلاثة عشر قرنا، ويقبل الإسلام ويدخل في الأحمدية أهل أوروبا وأمريكا وأفريقيا وأستراليا والهند والصين وجاوا وسومطرة والإيرانيون والمغول والأفغان والراجبوت والباتان وغيرهم وغيرهم.. فلا يوجد ملة ولا مذهب إلا ويدخل أهلها في الإسلام عن طريق الأحمدية، ويتحقق صدق هذا النبأ القرآني بأننا جعلنا هذا البيت جامعا للناس المتفرقين.

والمثابة أيضًا "العتبة" التي تحيط بالبئر، لتمنع وقوع ما يفسد الماء، ولتحول دون سقوط أحد في البئر خطأ. ونظرا إلى هذا يكون المراد: جعلنا الكعبة المشرفة لكي يجتمع الناس من كل مكان، ويتلقوا هنا تربية دينية وأخلاقا سامية؛ وثانيا جعلناها لتكون عتبة للعالم.. أي يكون فيها الناس بمأمن من السيئات والزور، وثالثا: جعلناها سببا لاستتباب الأمن، كالقلعة التي يجتمع فيها الجنود ويوطدون نظامهم..

هكذا جعل الله بيته الحرام ليجتمع فيه الناس لتقوية وإصلاح نظامهم. فكما أن القلعة تمنع دخول العناصر غير المرغوب فيها كذلك جعل الله بيته هذا لمنع هذه العناصر من ولوجه.

ثم إن الغرض من القلعة أن يتوطد الأمن فيما حولها ويصان الاستقرار، وهذا الغرض أيضًا متحقق في بيت الله تعالى. فهو مركز لتوطيد النظام، وسبب لصد العناصر غير المرغوب فيها، وذريعة لتوطيد الأمن في العالم.

وقوله تعالى (وأمنا).. نبأ ثان يقول فيه:

أولا- إن هذا المقام مقام أمن.. يعني أنه يُحفظ من عدوان الأغيار،

وثانيا- إن هذا المقام سوف يهيئ الأمن للآخرين،

وثالثا- لما كان الأمن الحقيقي هو طمأنينة القلب لذلك يمكن أن يعني قوله تعالى (أمنا) أن هذا البيت يهب طمأنينة القلب والسكينة. وبالفعل لا يمكن أن ينال الإنسان هذه الطمأنينة القلبية خارج الإسلام. وأبسط مثال على ذلك هو أن الإسلام يُقنِع بما يقول بتقديم الدليل والبرهان، أما الأديان الأخرى فإنها تلجأ إلى الجبر والتحكم بدلا من البرهان. يقول الإسلام إن الذي يقبل أمرا ما بدون برهان فلا حقيقة لإيمانه، بل إنه يعلن على لسان محمد المصطفى ﷺ (على بصيرة أنا ومن اتبعني) (يوسف:١٠٩)..أي أن ما أقدمه من تعاليم أؤمنُ بها عن اقتناع بالدليل والبرهان؛ وكذلك يقبله اتباعي بالدليل والبرهان؛ فشتان بيني وبينكم. أنتم تقولون: اقبل هذا الأمر وإلا تدخل جهنم، ولكن ما أقوله فإني أقدم عليه دليلا معقولا، لأن القلب لا يطمئن بدون ذلك.

كما أن أعظم ذريعة لحصول طمأنينة القلب هي المشاهدة..أي التشرف بالكلام مع الله. لو نال الإنسان هذا الشرف لم يقلقه شيء. والإسلام يَزفّ أيضًا هذه البشرى للمنتسبين إلى الكعبة المشرفة: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) (الفجر:٢٨-٣١).. ارجعي إلى ربك

وأنت في حال من الرضا.. هو راض عنك وأنت راضية عنه. إن أتباع كل الأديان يقولون إن الإنسان إذا عمل بديننا دخل الجنة، ولكن الإسلام لا يقول بأن الإنسان يدخل الجنة بعد الموت فقط، بل يقول: إنني سأريكم ربكم في هذه الدنيا أيضًا؛ مما يدل على أنني دين حق. يقول (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنـــزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) (فصلت: ٣١). فالإسلام يدعي بأنه يجلب طمأنينة القلب للإنسان، أما الأديان الأخرى فلا تدعي بذلك.

والمعنى الثاني للأمن أن يكون الشيء في مأمن. وهذا المعنى أيضًا ينطبق على الكعبة المشرفة، لأنها رغم مؤامرات الأعداء المتكررة لا تزال مأمونة ومحفوظة بفضل الله تعالى. جاءت حكومات بعد حكومات، ودُمرت بلاد بعد بلاد، ولكن بيت الله باق محفوظ بالرغم من هجوم الأعادي، وبقي مقام أمنٍ.

ثم ليس هناك أمة بقي لها معبدها تحت قبضتها دائما. وإنما هي أمة الإسلام التي بقي معبدها المقدس تحت يدها دائما. إن أورشليم المقدسة عند اليهود والمسيحيين كانت في يد المسلمين لأكثر من ألف عام. ثم إن "هاردوار" "وبنارس" وهما مكانان مقدسان لدى الهندوس بقيا في حكم المسلمين لستة أو سبعة قرون؛ ثم وقعتا في أيدي الإنجليز. كذلك "جيا" المكان المقدس عند البوذيين ظل تحت يد المسلمين ثم في يد الإنجليز وهي الآن في يد الهندوس. كذلك الحال مع الجينيين [الذين يحرمون قتل أي حيوان] فقد وقع معبدهم في يد قوم بعد قوم. ولكن الكعبة المشرفة هي الوحيدة التي بقيت في يد المسلمين، ولم تستطع حكومة غير إسلامية أن تستولي عليها من يدها. وهكذا كانت مكانَ أمنٍ دائما.

ومن حيث إعطاء الأمن للآخرين فإن الكعبة تختص بذلك بطريقة لا مثيل لها في الدنيا. كل شيء في الحرم يتمتع بالأمن حتى الحيوان حرام صيده. بل إن قطع الأشجار حرام، إلا الإذْخر وهو نوع من العشب والكلأ. ويتمتع الإنسان بالأمن

لأن القتال والحرب محرمان في حدود الحرم (البخاري: فضل الحرم). هذا علاوة على ما ينعم به الإنسان من حفظ الله بسبب التقوى والروحانية.

ولكن العجيب أن ذلك البيت الذي اعتبره الله بيتا يهيئ الأمن للآخرين.. فإن أهله المنتسبين إليه يؤمنون بجهاد لا يعطي الأمان لأحد في العالم! هذا أمر عجيب جدا.. لأن الدين الذي سُمِّي دين الأمن والأمان يعتبر بسبب عقائدهم الفاسدة هذه دين الفساد. وهكذا يجمعون بين الأضداد والمتناقضات. ولا يمكن إزالة ذلك إلا أن نخبر الناس بأنه لا إكراه في الإسلام، فهو يحمل تعليم الأمن، ويعطى الأمان للجميع، ولهذا الغرض نفسه أقيمت الكعبة المشرفة.

يقول الله تعالى: تذكروا وقتما جعلنا هذا البيت مثابة للناس وأمنا..أي تركنا أبوابه مفتوحة لكل العالم دون أي تمييز بين قوم ونسل وبلد ولسان.

قوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).من: هنا للتوكيد أو التمييز، وهناك محذوف قبل (واتخذوا) هو: قُلْنا أو أمرنا. والمراد: أمرنا أن تتمسكوا بمقام إبراهيم مكانا للعبادة؛ أو أن تصلوا في المكان الذي أقام فيه إبراهيم لبناء الكعبة؛ أو أن تُصَلّوا بعد الطواف في المكان الذي وقف فيه إبراهيم للعبادة، شكرا منكم على أن الله جعل هذا البيت سببا لتوحيد الناس وتوطيد الأمن.

ومقام إبراهيم موضع خاص عند الكعبة، أُمر المسلمون بأداء ركعتين نفلا فيه بعد الطواف بالبيت. ويبدو أن إبراهيم بعد أن فرغ من بناء الكعبة صلى في هذا المكان صلاة شكر لله، وإحياء لهذه السنة الإبراهيمية أمر الله المسلمين بأداء ركعتين هناك. إلا أنني أرى أن قوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، يعني أن تسعوا لتحوزوا في العبادة والطاعة مقاما تبوَّءه إبراهيم فيهما. إن الناس يظنون خطأ أن المراد من (مقام إبراهيم) موضع مادي، مع أن المقام الحقيقي لإبراهيم هو مقام الإخلاص والتقوى والاستسلام الذي كان يتمتع به، والذي عن طريقه رأى ربه. وكأنه يقول: عليكم أن تحبوا الله كما أحب إبراهيم ربه، وتضحوا في سبيل الله

كما فعل، وتشتركوا في فعل الخيرات بنفس الإخلاص والحب والتقوى والإنابة الذي كان يتمتع به إبراهيم. لو فعلتم ذلك لنلتم مقامه. فليس المراد من مقام إبراهيم هنا موضعا ماديا، ولكنه مقام روحي. وفي لغتنا أيضًا يقولون: " لم تعرف مقامي ".. ولا يفهم منه السامع أنه المكان الذي يجلس فيه، وإنما يدرك على الفور أنه يعني مقامه في رفعة القدرة والمكانة.

ولو تمسكنا بالمعنى الظاهري.. أي يقف كل مُصَلٍّ في مقام إبراهيم.. فهذا مستحيل. فأولا- لحدث اختلاف في تعيين يقيني لمصلاه في مقام إبراهيم. ولو عرفوه – على فرض المحال – ما استطاع العالم الإسلامي كله الصلاة هناك.. بل في أيام الحج وحدها يكون في الكعبة مائة ألف أو يزيدون، ولو أن كل واحد صلى في هذا المكان بسرعة لاحتاج إلى دقيقتين على الأقل، وفي ساعة واحدة لن يصلي فيه إلا ٣٠ شخصا وفي يوم واحد ٧٢٠ مصليا. أما الباقون هم أكثر من ٩٩ ألفا فلن يتمكنوا من أداء الصلاة في هذا المكان في ذلك اليوم. أما المسلمون الآخرون في أنحاء العالم فلا يمكن أن يصلوا في هذا المكان لبعدهم عنه فلو حملنا هذا الأمر على الظاهر ما أمكن أن يعمل به المسلمون.

ثم إن هناك احتمالا كبيرا أن يؤدي التزاحم إلى الفساد، بل بالفعل قد حدث شجار مرَّة وقُتل شخص في مكة بسبب ذلك. فهذه الآية لا تعني المفهوم الظاهري، وإنما معناها أن تحاولوا أن تقفوا في مقام الإخلاص الذي وقف فيه إبراهيم وعبد فيه ربه، وأن تعبدوا ربكم.

ثم إن قوله هذا (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) يشير أيضًا إلى قوله (إني جاعلك للناس إماما).. والمعنى: يجب أن يوجد بينكم أنتم أيضًا إمام حتى تبقى فيكم السنة الإبراهيمية حية. الواقع أن هاتين الآيتين تذكران نوعين من الإمامة: إمامة النبوة وإمامة الخلافة. أما الأولى فقال الله عنها لإبراهيم: (إني جاعلك للناس إماما) فقال إبراهيم (ومن ذريتي) كي يستمر عملي بعد موتي؟ فقال الله تعالى: سيكون في ذريتك بعض الظالمين، فكيف يعهد بهذا العمل إلى الظالمين؟ نعم، إننا نأمر أولادك

بالتمسك بسنتك الإبراهيمية، والذين يعملون بأمرنا هذا سوف نجعل منهم أئمة، وسوف يتمتعون بنعم متجددة من الله تعالى. فهذه الآية تتضمن ذكر إمامة النبوة التي تأتي من الله مباشرة.

أما إمامة الخلافة التي يكون للناس دخل فيها، فيشير إليها قوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).. فقيل للناس: إذا لم تكن هناك إمامة النبوة فمن واجبكم أن تقيموا بينكم إمام الخلافة، وأن تستمروا في ذلك.

ثم إن قوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)حض على أن نؤسس في المدن والأماكن الهامة مراكز للدعوة تكون ظلا للكعبة المشرفة وسببا لنشر الإسلام؛ حيث يجلس الناس يعبدون الله، وينشرون توحيده. يقول الله: يا من تَدَّعون بعشق الكعبة المشرفة، ويا من تدينون بحب بيت الله الحرام، ما بالكم تصوّرون كل منظر يعجبكم مثل "تاج محل " وتحتفظون بصورته في بيوتكم، وتعرضونه على أهلكم وأولادكم؟ وإذا أعجبتكم فاكهة أتيتم بها إلى بيتكم وتطعمونها أهليكم؟.. ولكن ما بالكم لا تحاولون أن تأتوا بصورة الكعبة إلى بلادكم وإلى أحيائكم؟

ما هي الكعبة المشرفة؟ إنها بناء وقف لعبادة الله. ولكن البديهي أنه لا يمكن للعالم كله أن يزور الكعبة، لذلك فإن الله كما يريد أن يوجد في العالم نُسخ أو صُوَر لإبراهيم.. كذلك يريد تعالى أن تصنعوا للكعبة نسخا تجلسون فيها أنتم وأولادكم.. واقفين مكرِّسين حياتكم لخدمة الدين. وكما أن الذين سوف يتبعون أسوة إبراهيم يكونون أولادا وأظلالا لإبراهيم، كذلك ستكون هذه النسخ أظلالا أو نماذج للكعبة. والحق أنه ما لم تُقَم أظلال للكعبة في كل أرجاء الأرض لا يمكن نشر الدين. يقول الله ناصحا بني الإنسان: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).. قوموا مقام إبراهيم، ومنه اعبدوا الله – أي أَنشِئوا مراكز لنشر الدين، لأن انتشار الدين بصورة كاملة لن يتم بدون ذلك.

قوله تعالى (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود). يخبر الله هنا ما هو مقام إبراهيم. عهد إلى فلان يعني نصحه نصيحة مؤكدة، وأوصاه مرارا وأكد له. فالمعنى أننا أكدنا أيما تأكيد عليهما (أن طهِّرا بيتي).. قوما بتطهير بيتي وحمايته من العيوب والخراب.. (للطائفين) الذين يطوفون حوله، أو الذين يزورونه مرة بعد أخرى، (والعاكفين) الذين يعتكفون فيه.. أو الذين يقفون حياتهم لمجاورته، (والركع السجود).. الذين يؤمنون دائما بتوحيد الله ويبقون مستعدين لتوطيد التوحيد، ويقضون حياتهم في طاعته والانقياد له، أو الذين يركعون ويسجدون.. فالركوع والسجود هنا ظاهري وروحاني أيضًا.

وللتطهير معنيان: إنه يعني الطهارة الظاهرة أيضًا.. كما قال الرسول ﷺ أن طهروا مساجدكم وعطِّروها بالعود (مسلم، الطهارة)، كذلك يعني التطهير الطهارة الباطنة.. أي تراعوا حرمة المساجد، ولا تتكلموا فيها بما لا طائل منه. ولكن الأسف أن الناس بدلا من أن يذكروا الله في المساجد يدخلون في أحاديث لا طائل منها، مع أن المساجد إنما تُبنى لعبادة الله. لاشك أنه عند الضرورة يُسمح بالحديث الديني والاجتماعي والمدني في المساجد. أما أحاديث اللغو داخل المسجد فهذا أمر منكر. فعلى الشباب خاصة أن يتذكروا هذا الأمر.

وقد يشير قوله تعالى (طهرا بيتي) إلى أنه سيأتي زمن سوف يضع الناس الأصنام في بيت الله، فمن واجبكم أن تطهروا هذا البيت منها وتلقوها خارجه. وبحسب هذه الوصية طهر الرسول ﷺ بيت الله وأخرج منه أصناما بلغت ٣٦٠ صنما (السيرة النبوية لابن هشام، فتح مكة).

لقد نزلت هذه السورة بعد الهجرة في وقت كان المسلمون لا يجدون الأمن حتى في المدينة. ولكن الله قال عندئذ إن كل العالم المتفرق اليوم سوف يجتمع على هذا المركز. فانظروا كيف أن الناس من كل مكان من العالم يحجون هذا المكان، ويتجهون إليه وقت الصلاة. فما أروعها وأعظمها آية على صدق النبي ﷺ!

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٧)

شرح الكلمات:

الثمرات – تُستخدم هذه الكلمة عموما للنتائج. كذلك تعني الفواكه الطازجة.

أضطره – اضطرَّه إليه: أحوجه وألجأه إليه (الأقرب)، فمعنى الآية: سوف أحيطه وأدفعه إلى جهنم.

التفسير: عندما قال الله إننا سوف نجعل بيت الله مرجعا للخلائق ومدعاةً للسلام العالمي.. اتجه إبراهيم فورا إلى ربه داعيا (رب اجعل هذا بلدا آمنا).. يا رب لقد قلت إن الطائفين والعاكفين والركع السجود سوف يأتون إلى هذا المكان، وسيكون عامرا بهم.. لذلك أبتهل إليك أن تجعل منه بلدا آمنا.. أي ليكثر أهله فيصبح بلدا يتوفر فيه الأمن والأمان، ولا يكون بؤرة للفساد والحروب.

عندما دعا إبراهيم بهذا لم تكن مكة بلدا، وإنما كانت هناك بعض الأكواخ، وكانت واديا غير ذي زرع ولا ماء.. فدعا إبراهيم أن اجعل هذه الأرض الجرداء بلدا. ويظن مَن ليس لديهم إلمام باللغة العربية أن إبراهيم دعا أن يجعل الله هذا البلد آمنا.. مع أن إبراهيم لم يقل هذا، وإلا لقال (اجعل هذا البلد آمنا)، ولكنه قال (اجعل هذا بلدا آمنا). فدعاء إبراهيم لم يكن لمدينة يريد لها النماء والازدهار.. وإنما دعا لأرض قفرٍ كي تكون بلدًا آمنا. فهناك احتمال أن يحدث الفساد والفتنة في المدن، لأنه عندما يجتمع الناس ويعيشون معا تقع الشجارات والحروب وأنواع الفساد. ثم هناك غزاة يهاجمون المدن لفتحها والاستيلاء عليها. أو عندما تكبر المدن يحاول أهلها بسط نفوذهم على الآخرين فيهاجمونهم. كل هذه الاحتمالات قد تصيب المدن، لذلك دعا: أدعوك يا رب، أن تجعل هذا المكان بلدا ذا أمن لا يهاجمه أحد، ولا يهاجم أهله الآخرين.. ليتحقق الهدف من بناء الكعبة المشرفة

تحققا صحيحا. وكأنما أراد إبراهيم أن يتسع النبأ المتعلق بأمن الكعبة ليشمل هذا البلد الذي سوف يعمر.

الحق أن الله هو الذي أقام حرمة الكعبة المشرفة، أما حرمة مكة المكرمة فقد تأسست بسبب دعاء إبراهيم هذا، لذلك قال النبي ﷺ عن المدينة: (اللهم إني أحرِّم ما بين لابَتَيْها بمثل ما حرَّم إبراهيم مكة) (البخاري، كتاب الجهاد).

وفي هذا الدعاء حذف إبراهيم كلمة (مثابة) (و لم يقل بلدا آمنا ومثابة للناس).. أي مكانا يثوب إليه الناس أو مكانا يُثاب الناس على زيارته.. وإنما اكتفى بالدعاء لأمن هذا البلد. والسبب أنه دعا دعاء إضافيا ليكون هذا المكان بلدا أيضًا، ويكون هذا البلد ذا أمن وسلام، لأن الأمن ضروري للكعبة المشرفة وللمقيمين حولها. أما زيارة بلد فلا تُكسب ثوابا، إذ إن العبادة والثواب يتعلقان بالكعبة المشرفة ولا علاقة لهما بمكة.

ويتبين من هذا الدعاء مدى حرص الأنبياء على تحقيق كلام الله تعالى وسعيهم في هذا السبيل. يعترض بعض الناس لجهلهم على الإمام المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) أنه لماذا كان يحاول تحقيق بعض الإلهامات والأنباء ما دامت وعدا من الله تعالى؟ إن هؤلاء لا ينظرون إلى أن إبراهيم (عليه السلام) بمجرد أن تلقّى الخبر من الله سعى على الفور لتحقيقه واشتغل بالدعاء. كان الله تعالى قد أمره أن يطهِّر بيته للعاكفين، وذلك يعني أن الناس سوف يسكنون هناك ويأتون للزيارة من الخارج.. وهذا يتضمن النبأ بُعمران مدينة في هذا المكان.. وما دام الله تعالى قد قرر ذلك من قبل فما معنى الدعاء لتحقيق هذا القرار؟

الحق أن سبب هذا الدعاء هو أن الله عندما يخبر شيء، فواجب المؤمنين أن يسعوا لتحقيق هذا الخبر، وأول خطوة في هذا السعي أن يبتهلوا إليه حتى لا يُلغي هذا الوعد بسبب تقصير أو غفلة من جانبهم. وإلى جانب هذا الدعاء يسعون للأخذ بالأسباب الظاهرة. ورد في الحديث أن هاجر وإسماعيل (عليهما السلام) عندما

سكنا هناك وتفجرت عين زمزم مرت بهما قافلة، ولما رأوا الماء الوفير في هذا المكان سألوا السيدة هاجر أن تسمح لهم بالإقامة هناك، فوافقت (مسند ابن حنبل، ج١ ص٢٥٣، وتاريخ الطبري). وكان هذا تدبيرا ثانيا لتعمير مكة إذ أتاحت لأهل القافلة موضعا للإقامة عند البيت، ذلك ليتحقق وعد جعل البيت مثابة للناس. فالمعترضون على الإمام المهدي والمسيح الموعود غافلون في الحقيقة عن مضمون كلام الله تعالى. إن من أكبر الواجبات على عباد الله أن يسعوا كل السعي لتحقيق ما أنبأهم الله به من أخبار ووعدهم إياها.

ولو قال قائل: وأي حاجة لله إلى نصرة أحد؟ فاعتراضه هذا لن ينصبَّ على هذا النبأ فقط، بل سيكون على كل أمر وكل نبأ. يقول الله في القرآن الكريم: (وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدونِ) (الذاريات: ٥٧). والآن، لو كان الأخذ بالأسباب لتحقيق قول الله ووعده غير جائز.. فعلى الناس أن يكفُّوا عن نصح بعضهم البعض لإقامة الصلاة والعبادة، ويَدَعُوا الناس وشأنهم مع الله فلو شاء الله لجعلهم يعبدونه، فلماذا نسعى نحن لذلك؟ وهذا غير صحيح.

كذلك يقول الله في القرآن الكريم: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحِجر: ١٠).. أي نحن الذين أنزلنا هذا القرآن، ونحن الذين سوف نحفظه. ولو كان قول المعترض صحيحا..لامتنع المسلمون عن حفظ القرآن الكريم، لأن هذا – بحسب قول المعترض – عمل يقوم به الله تعالى. ومن ثم ينبغي أن نَكُفَّ عن طبع القرآن الكريم، لأن هذا – بحسب قول المعترض – عمل يقوم به الله تعالى.

إذن فهذا اعتراض يدل على الحمق ولا يقبله ذو عقل سليم. ويمكن أن يُستدل بهذه الآية أنه إذا قال الله شيئا فمن واجب المؤمنين أن يسعوا كل السعي، ويأخذوا بكل الأسباب، ولا ينفكوا حتى يتحقق قول الله تعالى.

كما تذكِّرنا الآية أن من واجب العبد أن يحاول التكيف مع ما يريده الله تعالى. قال الله لإبراهيم (لا ينال عهدي الظالمين).. أي لا أعِدُ الظالمين من أولادك بأي إنعام.

فانظروا إلى إبراهيم كيف صار حذرا وتكيَّف على الفور مع ما يريده الله؛ وعندما دعا لأهل مكة ابتهل قائلا (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر).. وأخرج من دعائه كل من لا يؤمن بوحدانية الله تعالى وخص بدعائه المؤمنين بالله واليوم الآخر.

ثم انظروا إلى روعة دعائه: (وارزق أهله من الثمرات).. أي يا رب إنني لا أتوسل إليك لترزقهم طعاما عاديا من الثريد والحلوى والخبز وما إلى ذلك.. بل أتوسل إليك لتتجلى عليهم بربوبيتك العظيمة، فترزقهم بالثمرات فتُحمل إليهم في بلدهم فواكه الشرق والغرب. لقد قدَّمتُ بين يديك يا رب تضحية كبرى.. وأريد يا رب أن أرى ألوهيتك تتجلى بحيث تُيسر لأهل هذا الوادي الخالي من الزرع كلَّ الفواكه الطيبة من أطراف الدنيا.

فتقبَّل الله هذا الدعاء الشبيه بالتحدي من إبراهيم.. وقال: يا إبراهيم، لقد أسكنت أهلك في واد غير ذي زرع، وهكذا ضحيت بابنك إسماعيل.. وتريد أن ترى ألوهيتي. وقلتَ لي: إنني يا رب، رغم أني عبد عاجز فقد أثبتُّ عبوديتي، والآن أرجوك يا رب أن تؤكد لي ألوهيتك.. وطلبت أن يكون الدليل على تجلّي ألوهيتي ألا يصنع هؤلاء طعامهم وإنما يكسبه لهم الناس ويطعمونهم إياه، ولا يقدمون لهم طعاما عاديا وإنما يطعمونهم أفضل الفواكه من كل العالم. إنني أقبل شرطك هذا، وسوف أحقق لك ما أردت في هذا الوادي الخالي من الزرع والكلأ.

ولقد تأكدت بنفسي من صدق هذا الوعد الإلهي في أيام الحج. لقد رأيت في مكة المكرمة قصب السكر الهندي، وعنب الطائف، وأطيب أنواع الرمان. وأشهد أني ما ذقت مثل هذه الأعناب والرمان والتفاح حلاوة. لقد زرت الشام وإيطاليا وبلاد أوروبا، ويقولون في أوروبا إن العنب الإيطالي أجود أنواع العنب، ولكني قلت لأهل إيطاليا إن العنب الذي أكلته في واد غير ذي زرع بمكة كان –بسبب دعاء سيدنا إبراهيم – أجود وأحلى وألذ من عنبكم. والرمان في المناطق حولنا مشهور

بجودته، ولكن الرمان الذي أكلته في مكة يفوق ذلك كثيرا في حلاوته وجودته وحجمه.

فالحق أن دعاء إبراهيم (وارزق أهله من الثمرات) لم يكن دعاء عاديا، لأنه لم يطلب الأشياء العادية.. بل دعا لهم بأجود الفواكه من العالم. لقد طلب إبراهيم في دعائه لأهل مكة غاية الرخاء.. لأن تيسر الثمرات في مكة غير ممكن، إذ لا يوجد هناك أي حراثة ولا زراعة، كما أن وصول الفواكه إليها من أماكن بعيدة متعذر.. لأن الثمرات تعني الفاكهة الطازجة الجيدة. وإبراهيم يقول: يا رب لا تحرمهم من هذه النعم أيضًا حتى لا يظنوا أنهم قد انقطعوا عن العالم وصاروا لهذا لبيت فقط. فهيِّئ لهم مثل هذه الأشياء المتميزة.. حتى يكون ذلك حجة على العالم كله أن كيف عمر الله هذه البرية، وأضاء هذا المكان المظلم. وفعلا وببركة هذا الدعاء الإبراهيمي يصل إلى أهل مكة كل أنواع الفواكه الطازجة، وكل الأشياء المتميزة متيسرة هناك.

يُحكى أن أحد الأولياء اشتهى أيام الحج مرة أن يوجد في مكة ثلج يصنع منه مع السُّويق شرابا ملطفا لحرارة الجو الشديدة، فدعا ربه: هذا بيتك يا رب، وقد وعدت أن ترزق أهله كل أنواع الرزق.. فهيِّئ من فضلك الثلج. فأنزل الله البَرَد على مكة. فجمعه الناس، وهكذا هيأ الله له الثلج المطلوب.

لقد دعا إبراهيم لأهل هذا البلد أن يا رب لا تجعل أهل هذا المكان يشعرون بالحرمان من هذه النعم بسبب خدمتهم لبيتك، لذلك ألتمس منك أن ترزقهم من أعلى أنواع الفواكه، وتمتعهم بنعمك حتى يروا أنهم لا يفتقدون شيئا وإنما يتنعّمون بسبب جوارهم للبيت.

ويبدو في ظاهرة الأمر أن إبراهيم قد دعا لرخاء أولاده. ولكنه في الحقيقة أثار غيرة الله تعالى ورحمته.. لأن الله أمره أن طهِّرا بيتي، ففكر أنه قد يدور بخلد بعض الأجيال القادمة أنهم يمنّون على الله تعالى بأنهم يحفظون بيته في واد غير ذي زرع..

وأحبَّ أن يحسوا بأن الله هو الذي يحسن إليهم لا هم؛ لذلك دعا إبراهيم بكل حيطة فقال: يا رب ارزق من الثمرات فقط من آمن بالله واليوم الأخر. وربما كان قصده من هذا الدعاء أنه قد يتضايق غير الصلحاء من شدة الجوع فيخرجون من مكة ولا يبقى فيها إلا الصالحون من عباد الله دائما. ولكن الله تعالى لم يحبذ هذا التخصيص في شأن رزقه.

هنا ينشأ سؤال: لماذا دعا إبراهيم بالثمرات مع أن الإنسان لا يعيش على الثمار فقط وإنما يعيش على الخبز؟

فلنتذكر أن مكة مكان لا يُزرع فيه أي شيء. والأشياء التي تصل إليها تكون صلبة، أما المواد الناعمة الطازجة فلا تصل إليها وإنما تفسد في الطريق. ولقد دعا إبراهيم بالثمار بدلا من الخبز، لأنه رأى أن الثمار إذا وصلت مكة فمن باب أولى تصل إليها الأشياء الأخرى بما فيها الخبز. وقد ذكرت لكم أن أنواع الثمار من كل بلد تصل إلى مكة.

قولة تعالى (ومن كفر فأمتعه قليلا) يعني أن معاملتنا في صدد الرزق عكس معاملتنا في صدد النبوة والإمامة. إن النبوة والإمامة إنما ينالهما الصلحاء، أما الرزق فيتمتع به كل إنسان، وسوف نرزق الكافر أيضًا بالرزق الدنيوي. لقد ظل أهل مكة مشركين لمئات السنين إلا أن الله كان يهيئ لهم الرزق. أما العذاب الأخروي فقال الله لإبراهيم إن الظالمين من نسلك لن ينجوا منه، بل لا بد أن يُلقَوا في جهنم وبئس المصير.

وعبارة (فأمتعه قليلا) لا يعني أنه يمتعهم بالرزق لأيام قليلة، وإنما معناه أنهم ينالون المنفعة الدنيوية التي ذُكرت بنفس المعنى في قوله تعالى (متاع الدنيا قليل). والفاء في (فأمتِّعه) إما زائدة أو للعطف، وهناك خبر محذوف لـــ (مَن)، والتقدير من كفر أرْزقه فأمتعه.. أي أمنحه الرزق وأهيئ له المنافع الدنيوية الأخرى. ولكن فيما يتعلق بالمنافع الروحانية فلا ينالها ما لم ينشئْ علاقة مع الأنبياء.

ولا تذكر التوراة هذا الدعاء في أي مكان منها، لأن اليهود محوْا ذكر مكة من التوراة محوا تاما بسبب عداوتهم لبني إسماعيل. نعم هناك ذكر للكعبة المشرفة في بعض المواضع من التوراة.

ويمكن أن نستخرج من هذه الآية استدلالا، قد أكد عليه كثيرا الإمام المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام)، فقد قال إن العذاب لا يأتي بسبب رفض الناس للأنبياء، وإنما ينـــزل لفسادهم وشرورهم ضد الأنبياء. لو أنهم عاشوا بالتقوى فلا يمكن أن يحيطهم العذاب فقط لرفضهم الأنبياء. الواقع أن الإنسان مركب من الجسم والروح، فعندما يطيع طاعة جسمانية، يرتاح في عالم الأجسام، ولكن بما أنه لم يكن قد عمل أي عمل للعالم الروحاني الخالص.. فإنه يقع في الأذى في ذلك العالم.

وفي قوله تعالى (ومن كفر فأمتعة قليلا) قدم الله طريقا ساميا لتوطيد الأمن في العالم، وبين أن الاختلاف الديني لا يؤدي إلى قطع العلاقات الدنيوية. ولو أن الناس عملوا بهذا المبدأ، ولم يقعوا في الفتنة والفساد لانمحت كل الخصومات الدينية والفسادات الطائفية.

وقوله تعالى (ثم أضطره إلى عذاب النار) أيضًا يبين أن عبارة (فأمتعه قليلا) لا تعني أن الله يمتعه لأيام قليلة، وإنما المراد أنه سيتمتع المتاع الدنيوي فقط، فالله يقول (ثم أضطره إلى عذاب النار)، والواضح أن عذاب النار يحيط بالإنسان بعد الموت. يقول الله أن لا ملاذ لهم إلا مكان العذاب وبئس المصير.

وقوله تعالى (أضطره) يحمل حكمة. يبدو في الظاهر أن الله سوف يكرههم إلى العذاب، ولكن ليس هذا هو المراد، وإنما أشار بذلك إلى قانون أن الإنسان إذا استمر في ارتكاب السيئات كانت النتيجة المنطقية الحتمية أن تضعف فيه قوى الخير، فينجذب إلى السيئات انجذابا. الذين لا يقبلون هذا القول يقولون إن فعل الخير سهل وسوف نقوم به متى شئنا، ولكن قولهم هذا ليس صحيحا. فنعرف من

القرآن أن السيئة ليست شيئا مفردا وإنما هي كالنواة أو البذرة.. فكما أن البذرة تُنبت شجرة، والشجرة تنبت أشجارا جديدة.. كذلك كل سيئة بعد ظهورها تولد سيئات أخرى. وكذلك الحسنة، فإنها بعد ظهورها تُنبت حسنات أخرى. وكون الله تعالى رحيما يشير إلى تكاثر الحسنات لدى الإنسان باستمرار، وكونه قهارا يشير إلى ازدياد الإنسان في السيئات، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى يجبر الإنسان على فعل السيئات، وإنما يعني –كما ذكرت– أنه بسبب ارتكابه السيئات باستمرار يصل إلى حال حيث لا يستطيع تجنب ارتكابها وإن أراد ذلك.

فقوله تعالى (ثم أضطره) لم يكن يشير إلى الجبر والإكراه أو ليدفع الإنسان إلى القنوط واليأس، وإنما جاء لتحذير الإنسان من ارتكاب السيئات، وإلا سوف يأتي عليه وقت يندفع فيه إلى السيئات باستمرار ولا يستطيع العودة منها. أو يصعب عليه ذلك.. لأن الإنسان عندما ينغمس في السيئات يتعذر عليه التخلص منها، ويجد نفسه في حالة اضطرارية لارتكاب المعاصي. ولذلك يقول بعدها (وبئس المصير)، فلو كان هناك إجبار لم يقل ذلك. ونفس الحال بالنسبة لأفعال الإنسان الأخرى؛ هناك كثير من المثقفين الكبار يأتون أحيانا بحركات عجيبة وبأفعال غريبة، ذلك أنهم فعلوا شيئا منها بعض المرات، ثم تعودوا عليه فأصبح عادة عندهم.

فبداية كل من الحسنة والسيئة في خيار الإنسان، ولكن بعد ذلك يصل الأمر إلى مستوى العادة الاضطرارية. ولما كانت البداية في مجال اختيار الإنسان.. لذلك تُعتبر نهاية أمره بحسب اختياره ذاك. فمثلا إذا كانت في الإنسان عادة قديمة لأداء الصلاة فإنه يثاب عليها باستمرار، لأن بداية أداء الصلاة كانت بإرادته. وهكذا الحال بالنسبة للسيئة، فيبدأها الإنسان أيضًا باختياره، ولكنه في آخر الأمر يجد نفسه مضطرا لارتكابها. ولو حاول اجتنابها لم يستطع ذلك، بل يصير عبدا لها.

وقد أشير في قوله تعالى (أضطره إلى عذاب النار) إلى هذا الموضوع نفسه، فإن هؤلاء قد وصلوا إلى حال يجدون أنفسهم فيه مضطرين إلى ارتكاب السيئة، ومن ثم يضطرهم الله إلى جهنم، ويعاملهم بحسب أعمالهم.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٨)

التفسير: لقد قال الله من قبل إننا جعلنا بيت الله مثابة وأمنا للناس، ولكنه لم يذكر من الذي بنى هذا البيت. ويبدو من هذه الآية أن إبراهيم هو الذي أرسى الأساس لبيت الله، ولكن هذا غير صحيح، لأن الله تعالى لم يقل هنا (وإذ يضع إبراهيم القواعد)..وإنما قال (وإذ يرفع إبراهيم القواعد)، وهذا يدل على أن بيت الله كان موجودا من قبل، ولكنه قد تهدم، ورفع إبراهيم هذا الأساس بإذن الله، وأقامه من جديد.

وهناك آيات قرآنية أخرى تؤكد هذا الموضوع، فقد ورد (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) (آل عمران: ٩٧)..أي أن أول بيت بُني لصالح الناس ومنفعتهم هو ذلك الموجود في مكة المكرمة، وهو مكان بركة وهداية للناس جميعا.

وكذلك ورد في الأدعية التي دعا بها إبراهيم (ربنا إنى أسكنتُ من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) (إبراهيم: ٣٨). وكلمة (عند بيتك المحرم) تبيِّن أن بيت الله الحرام كان موجودا هناك من قبل، لأن هذا الدعاء صدر من سيدنا إبراهيم عندما كان ابنه إسماعيل طفلا صغيرا جاء به مع أمه هاجر وأسكنهما هناك، وأطلع الله إبراهيم بالوحي على هذا المكان وأخبره أن هذا هو أول بيت بُني لله تعالى.

كذلك وصف القرآن بيت الله بأنه البيت العتيق في قوله تعالى (وليطَّوَّفوا بالبيت العتيق) (الحج: ٣٠).. مما يبن أن بيت الله موغل في القدم، أو بعبارة أخرى أنه أول معبد بُني لعبادة الله في العالم. فليس إبراهيم باني هذا البيت، وإنما جدد بناءه ورفعه على أسسه الأصلية.

وتؤكد الأحاديث أيضًا وجود آثار لبيت الله قبل قدوم إبراهيم إلى هذا المكان.. فقد ورد أنه لما ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل هناك قالت (يا إبراهيم، أين تذهب

وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ قالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيِّعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم إذ كان عند الثنية – حيث لا يرونه –استقبل بوجهه البيتَ ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يداه فقال (ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم (البخاري، كتاب الأنبياء).

يؤكد هذا الحديث أيضًا أن الكعبة لم يبنِها إبراهيم وإنما جدّد بناءها فقط، وأنها كانت موجودة من قبل، وكانت بدايتها في زمن لا يعلمه إلا الله تعالى، ولا يذكر التاريخ ذلك.

ويعترف بذلك المستشرق المتعصب (وليم موير Sir William Muir) ويقول: (إننا مضطرون إلى إرجاع المبادئ الكبيرة لدين مكة إلى زمن موغلٍ في القِدم. إن المؤرخ اليوناني هيرودوس –وإن لم يذكر اسم الكعبة – إلا أنه يذكر إلها من آلهة العرب الكبيرة "اللات "، وهذا دليل على أنه كان يُعبد في مكة إله كان يعتبر إلها للأصنام الكبيرة أيضًا).

ثم يقول: (إن المؤرخ الشهير"ديودورس سكولس Diodorus Siculus قال وهو يتحدث عن ما قبل الميلاد بنصف قرن: هناك معبد من الحجر مشيد بالجزء المحاذي للبحر الأحمر من الجزيرة العربية، وهو معبد قديم جدا، يؤمه العرب من كل مكان لزيارته).

ثم يقول السيد وليم موير "إن هذه الكلمات تتعلق بالبيت المقدس بمكة، لأنه ليس هناك مكان آخر اكتسب هذا الاحترام الكبير من العرب" (حياة محمد، ديباجة، فصل٢، ص١٠٢-١٠٣).

أما قوله تعالى (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فاعلم أن من شأن الأنبياء وعظمتهم أنهم –إلى جانب العمل والسعي– يشتغلون بالدعاء. الناس يعملون قليلا ويتفاخرون، ويقولون ضحينا بكذا وكذا؛ ولكن انظروا إلى سيدنا إبراهيم عليه

السلام فإنه أولا استعد لذبح ابنه البِكر، ثم عندما كبر ابنه أخذه إلى برية لا طعام فيها ولا ماء، ثم إنه رضي بموته من خلال بناء الكعبة وإبقائه في جوارها إلى الأبد. وأقول موته للأبد لأنه كان من الممكن أن يغادر إسماعيل هذا المكان إلى مكان آخر بعد رجوع إبراهيم من هناك، ولكن بناء البيت الحرام قيَّد إسماعيل عليه السلام هناك فلا يبرحه. وكأن كل لبنة من الكعبة المشرفة كانت تقول بلسان حالها لإسماعيل عليه السلام: الآن سوف تقضي كل حياتك في هذا البرية.

ما أعظم تضحية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام! ولكن لاحِظوا تذللهما لله تعالى إذ يبتهلان بعد ذلك (ربنا تقبل منا).. يا رب جئناك بهدية متواضعة، فتغاضَ عن تقصيرنا، وتقبَّلْها بفضلك ورحمتك. انظروا كيف يتضرعان ويتوسلان لله تعالى ليتقبل هديتهما! فكلمة (تَقَبَّل)من باب التفعُّل الذي يُستخدم تعبيرا عن التكلف والتأكيد. فكأنهما يقولان: يا رب، تقبل تضحيتنا هذه بمحض رحمتك، مع أنها كانت تضحية عظيمة بحيث لا نجد لها نظيرا في العالم. كان الأب يضحي بابنه، والابن بأبيه، وكانت كل لبنة من الكعبة المشرفة تقيدهما بتلك البرية التي لا ماء فيها ولا كلأ، بل إن إبراهيم بنفسه كان يدفِن في بناء هذا البيت عواطفه وأحاسيسه، ومع ذلك يدعو ويبتهل إلى ربه قائلا: يا رب إن هذه الهدية لا تليق بالقبول عندك، ولكن نتوسل إليك أن تتقبلها برحمتك وفضلك.

ما أعظم هذا التذلل الذي أبداه إبراهيم! والحقيقة أن حالة القلب هذه هي التي ترفع قدر الإنسان، وإلا فكل إنسان يضع اللبنات ويبني العمارة. ولكن إذا كان هناك قلب إبراهيمي عندئذ تتيسر هذه النعمة التي يسرها الله لإبراهيم (عليه السلام).

فعلى كل إنسان أن يقول: ربنا تقبل منا. إنك أنت السميع العليم. ولكن الأسف أن الناس بدلا من أن يقولوا: ربنا تقبل منا.. يقولون: إن تضحيتنا لم تنل حقها من التقدير؛ أو يقولون: إن هؤلاء لا يقدروننا حق قدرنا. مع أنهم لا يفعلون ما يفعلون إلا تقليدا للسابقين، أما إبراهيم فلم يقلد أحدا، وإنما قدم التضحية على غير مثال

سبق؛ فما أن أمره الله بها إلا وكان مستعدا لتقديمها. إن أمثال إبراهيم هم عماد هذا العالم، ووجودهم المبارك تميمة ضد المصائب. إنهم يقدمون التضحيات.. ومع ذلك يمضون طائعين يقولون: إن تضحيتنا يا رب لا تليق بأن تقدَّم بين يديك، لأنك أعظم وأسمى، ولكننا نرجوك أن تتغاضى عن ذلك وتتكرم علينا بقبولها. إنك السميع.. تسمع الدعوات، وإنك العليم..تعلم أن هذه التضحيات هي أقصى ما نستطيع تقديمه وإن كان ضئيلا بالنسبة لمقامك. وكونك سميعا يقتضي أن ترحمنا، وكونك عليما يكشف لك أن هذا كل ما في قدرتنا.

هذه هي الروح التي تحلّى بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وهما يرفعان قواعد بيت الله قائلين (ربنا تقبل منا).. إننا شيدنا هذا البيت خالصا لتوحيدك ومحبتك، فتقبل هذا منا بفضلك، واجعله مكان ذِكر وبركة للأبد.. (إنك أنت السميع العليم) تسمع ضراعتنا الحارة، وتعلم أحوالنا..فإذا قررت أن يبقى هذا البيت للأبد خاصا لذكرك فمنذا الذي يمكنه أن يغيّر قرارك؟

وتَبَيَّن من هذه الآية أن لبناء بيت الله في الواقع جانبين: جانب يتعلق بالعبد، وجانب يتعلق بالله تعالى. فالبناء الذي نسميه "بيت الله " يُبنى من الطين واللبن، وهذا لا يصنعه الله تعالى وإنما يصنعه الإنسان، ولكن هل يصبح البناء بيتا لله لأن الإنسان بناه؟ الإنسان إنما يبني الهيكل.. أما الروح فالله يلقيها فيه. ونظرا لهذه الحقيقة يقول إبراهيم: لقد بنيتُ أنا وابني إسماعيل الهيكل، ولكن بناءنا هذا لا يعني شيئا. هناك العديد من المساجد آلتي بناها الملوك والأمراء.. ولكنها أصبحت اليوم خرابا مهجورة.. ذلك لأن الإنسان بنى تلك المساجد، ولكن الله لم يَقْبلْها..لذلك يدعو إبراهيم وإسماعيل: يا رب لقد بنينا لك بيتا فاقْبله، واسكُنْه. وإذا سكن الله – سبحانه – في مكان فكيف يمكن أن يصير خرابا؟ يمكن أن تصبح القرى أطلالا والمدن خرابا..ولكن المكان الذي سكن فيه الله لا يمكن أن يصيبه الخراب.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٩)

شرح الكلمات:

مسلميْن-المسلم: المطيع؛ المنقاد (الأقرب).

أمّة-الأمة: الجماعة (الأقرب).

أرِنا-الرؤية تكون بالعين والقلب، والمراد هنا كلتاهما، ولوجود كلمة (مناسك)بعدَها يكون المعنى: أظهِر لنا أو علِّمنا مناسكنا.

مناسك-جمع منسك وهو العبادة؛ أو كل الحقوق التي يجب أداؤها لله (الأقرب).

التواب-التوبة من العبد تعني رجوعه وإنابته بصدق القلب إلى الله. والتوبة من جانب الله تعني رحمته على عبادة.

والفرق بين التوبة والرحمة أن الرحمة بتوفيق من الله إلى الترقيات الروحانية بسبب اتجاه الإنسان إلى فعل الخيرات. أما التوبة فتدل على ترقيات روحانية بسبب التخلص من المعاصي. فصفة التواب تُستخدم عموما لدفع السيئات والتقصيرات، وصفة الرحيم لخلق الكفاءات والطاقات الروحية. فكلتاهما تشير إلى فعل خاص مستقل عن الآخر: الرحيم للارتقاء والزيادة، والتواب لتلافي النقص. كأن الإنسان عندما يتطهر من أخطائه ويتدارك نقصانه ويميل إلى الارتقاء الروحي.. فإن صفة (الرحيم) تؤدي دورها.

التفسير: يدعو إبراهيم ربَّه: إن عمران هذا البيت منوط بعبادك، ولكن مجرد وجود السكان لا يعني شيئا، بل المهم أن يكون المنتسبون إلى هذا البيت من الصلحاء. فندعوك نحن الاثنين أن تجعلنا مسلميْن لك..مطيعين لك متمثلين لقولك، وأن تكون من ذريتنا طائفة مطيعة لك على الدوام، ونبتهل إليك أن تدلنا على طرق للعبادة تناسب حالتنا. ذلك أن الإنسان مهما كان مخلص القلب طيب القصد.. إذا لم يعرف كيف يعمر البيت فهو معرض للخطأ، لذلك يدعوان ربهما أنه لا يكفي

أن تملأ قلوبنا بالإيمان فحسب. .بل يا رب دُلَّنا من وقت لآخر كيف نعمر هـذا البيت، وما هو الطريق الذي نختاره للعبادة حتى ترضى عنا ويبقى هذا البيت عامرا. وفي هذا الدعاء لم يقل إبراهيم: أرِنا المناسك، وإنما قال: أرِنا مناسكنا، والسبب أن الأحوال تتغير بتغير الزمن، والمؤمن الكامل يسعى لإدراك الفرائض التي تفرض عليه بتغير الأحوال. إن اتباع طريق قديم بدون تدبر وغضِّ النظر عن الأحوال المتغيرة لا يفيد الإنسان شيئا. والأسف أن المسلمين في هذا الزمن لم يدركوا هـذا الأمـر، وكانت النتيجة أنهم يؤكدون على الجهاد بالسيف فقط، مع أن الزمن لا يتطلـب منهم جهادا بالسيف، وإنما يطالبهم جهادا باللسان والقلم، إن إبراهيم يدعو ربـه: ربِّ وفِّقنا لعمل صالح مناسب لحالنا، واهدنا في هذا السبيل دائما.

ورد في الحديث أن شخصا سأل النبي ﷺ: أي عمل أفضل؟ قال: أفضل الأعمـال صلاة التهجد. وسأله آخر: أي الأعمال أفضل؟ فقال الجهاد في سبيل الله أفـضل الأعمال. والسبب في اختلاف الجواب أن أهمية الأعمال تختلف باختلاف الأفراد. فالذي لا يقوم بالقتال جهادا في سبيل الله فالجهاد أفضل الأعمال له. والذي امتلأ قلبه بالكِبر والنخوة فأفضل الأعمال له هو التواضع. والذي يُؤثر النوم علـى أداء صلاة العشاء والصبح في المسجد، فأفضل الأعمال له هو ترك الفراش وأداء الصلاة في المسجد. والذي لا يقوم الليل فأفضل الأعمال له هو أداء صلاة التهجد، والذي لا يقوم بخدمة أبويه فأعظم الأعمال له هو برهما والقيام على خدمتهما. فكل خير يثقل على أحد فإن عمله هو أفضل الأعمال بالنسبة له. وكذلك كل عمل تـدعو إليه الضرورة أكثر من غيره هو أعظم عمل. ففي وقت الصلاة تكون الصلاة هـي أفضل الأعمال، وفي وقت الصوم يكون الصوم هو أفضل الأعمال. فأهمية وأفضلية الأعمال تختلف باختلاف الأمم والأفراد والأزمان، فكل بِرّ يحتاج إلى القيام به أمة أو فرد أو زمن هو الأفضل بالنسبة لهذه الأمة أو ذاك الفرد أو ذاك الزمن، والعمل به يجعل الإنسان محط رضوان الله.

إن إبراهيم نظرا إلى هذه النكتة يدعو ربه: إلهي، نحن ضعفاء بلا حول ولا قوة، ولا نستطيع عبادتك حق العبادة، فارحمنا ودلنا على طرق لعبادتك تناسب الحال. إننا لن نستطيع حمل هذا الثقل.

وزاد في دعائه (وتُبْ علينا)..أي جُدْ علينا بإلهامك الذي يدلنا على عمران بيتك. نحن عبادك يا رب، وسوف نقع في الأخطاء، لذلك نلتمس منك المغفرة، فغُضَّ النظر عن سيئاتنا. .(إنك أنت التواب الرحيم)، فأنت الذي تقبل التوبة كثيرا لأنك رحيم.

لقد ذكر إبراهيم صفتي التواب والرحيم لأن العبد مهما كان صالح النية في عمله فإنه مع ذلك يقع في الخطأ، وفي هذه الحالة تتداركه صفة التواب. أما إذا عمل عملا صالحا فإن صفة الرحيم تساعده وتعينه.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٣٠)

شرح الكلمات:

آياتك –جمع آية ولها معان عديدة:

١.آية من الإيواء. آواه: هيأ له ملاذا.

٢.كل كلام ينتهي بفاصل لفظي مثل الآيات التي يكون في آخرها علامة انتهائها.

٣.العبرة.

٤.عين الشيء وشخصه.

٥.الجماعة. يقال خرج القوم بآيتهم و لم يَدَعوا وراءهم شيئا (الأقرب).

٦.العلامة الظاهرة للشيء، فمثلا كلمات الكتاب آيته لأنها تدل على الموضوع وبالجملة فكل شيء ظاهري يدل على شيء خفي فهو آية.

ويقول بعض النحويين إن أصل الآية من تأيَّا، والتأيِّي هو التثبت والإقامة على الشيء. فإذا كان كل شيء قائما وثابتا في مكان سُمي آية.. مثل الأحجار التي تكون علامة لمرحلة في الطريق كعلامة الميل أو الكيلو متر.

٧.البناء العالي.. كقوله تعالى (أتبنون بكل ريع آية تعبثون) (الشعراء:١٢٩) أي تجعلون على الجبال بنايات على سبيل العبث. ويدل هذا على أن البناء على رؤوس الجبال عادة قديمة وليست من بدع أوروبا.

٨.الجملة من القرآن الكريم الدالة على حُكم: سورة كانت أو فصلا منها.

٩.العذاب-كما في قوله تعالى (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) (الإسراء:٦٠).

الكتاب – لهذه الكلمة عدة معان منها:

١. الصحيفة، وهي ما يسمى في عرف العالم كتابا؛

٢.الحكم؛

٣. الفرض؛

٤.الشيء الذي يُجمَع مثل الكتيبة.. وهو جند كبير يجمع ألوية وأمتعة وجنودا. فكلمة الكتاب في الأصل تحمل معنى الجمع والوصل. قالوا كتب القِربة: أغلق فاها. وكتب الحيوانَ: جمع مشفريه بحلقة حتى لا يخرب الزرع مثلا، ومن هنا استخدموا لربط الحروف بالحروف كلمة الكتابة.

ولفظ الكتاب يستخدم على الأكثر للدلالة على الشيء المكتوب، وإن كان يستخدم لكلام معين يمكن أن يُحفظ (الأقرب).

ويستشهد أهل اللغة على هذا المعنى بقول الله تعالى (الم *ذلك الكتاب)، فيقولون، قد أشير إلى "الم "بكلمة "ذلك الكتاب"، مع أنه لم ينزل و لم يكن مكتوبا، مما يدل على أن الكلام غير المكتوب يمكن تسميته كتابا.

ولكن استدلال اللغويين هذا خطأ، لأن "ذلك" ليست إشارة إلى "الم"، بل إلى سورة الفاتحة التي قد نزلت وكُتبت من قبل. وعلى أي حال، سواء كانت إشارة إلى "الم" أم إلى سائر سورة البقرة أم إلى القرآن كله.. فلا يُستنتج من هذا المثال

أن الكلام غير المكتوب يسمى كتابا، لأن بعض الأمور التي تكون قد قُررت مسبقا تسمى بحسب هذا القرار، وإن كانت لم تقع في ذلك الوقت، مثل الأب الذي يسمى ابنه عبد الرحمان.. فهل يعني ذلك أن ابنه قد وُلد حاملا صفة الرحمن وهو جنين في بطن أمه؟ كلا، وإنما معنى هذه التسمية أنه عندما يكبُر سوف يعمل أعمالا تعكس صفة الرحمان. كذلك ورد في القرآن الكريم عن سيدنا نوح (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) (الشعراء:١٢٠)، وليس معنى ذلك أن الله أركب نوحا ومن معه سفينة مكتظة بالركاب من قبل، لأنه كيف يمكن أن تسع السفينة المشحونة نوحا ومن معه؟ فالمعنى أن الله أركبه في سفينة كانت ستمتلئ بركوب نوح وأصحابه فيها. إذن، قد يطلقون اسما على أحد بسبب فعل سيقع منه في المستقبل، وكذلك الحال بالنسبة لقوله " ذلك الكتاب "،فالإشارة ليست إلى "الم" ولا يستدل بذلك على أن كلمة "كتاب" استخدمت لشيء غير مكتوب بل هو إشارة إلى أن هذا القرآن سوف يصبح كتابا كاملا لأن الله تعالى قد قرر ذلك.

ويُطلق الكتاب على صحيفة يكون فيه كلام مكتوب كما ورد في القرآن الكريم (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس)(الأنعام:٨).

ومن معاني كَتب: قضى، كما في آية (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) (التوبة:٥١) (المفردات).

فللكتاب عدة معان نستخلص منها ما يلي: الشيء الذي يقيمونه أو يقدرونه أو يوجبونه أو يفرضونه أو يقررونه. كل هذه المعاني تتضمنها كلمة كتاب.

الحكمة – لها عدة معان منها العدل؛ العلم؛ الحلم؛ ما يمنع من الجهل؛ وضع الشيء في موضعه؛ صواب الأمر وسداده (الأقرب).

يزكّيهم –زكّاه: زاده وأنماه. والإنماء على نوعين: أنماه في ذاته أو زوّده بأشياء. والزكاة التطهير (الأقرب). فيعني قوله تعالى (يزكيهم) أنه ينميهم، ويزوّدهم، ويطهرهم. ثم إن التطهير نوعان: ظاهري وباطني.

التفسير: ثم يدعو إبراهيم قائلا: يا رب، أرْسِل بين القاطنين هنا رسولا عظيما منهم. وتبين كلمة (منهم) أن إبراهيم يريد أن يقول: يا رب، ببعث الرسول سوف يتعلمون كيف ينشئون صلتهم بالكعبة المشرفة ويصبحون عبادك المخلصين الصادقين. ولكن يا رب، لقد أسكنت هنا أولادي لهدفين: الأول أن يعلو اسمك، والثاني أن تكون رفعة اسمك عن طريق أولادي. إننا لم نبنِ بيتك فقط بل أيضا أسكنا أولادنا عنده، كأننا سعينا لرفع اسمك، ولكن في ذلك مصلحة شخصية لنا أيضا، وهي أن يُبعث من بينهم الرسول الموعود. .وليس من خارجهم.

قوله تعالى (يتلو عليهم آياتك).. يقرأ هذا الرسول آياتك عليهم، ويجدد إيمانهم بمعجزاتك، ويبين لهم البراهين والسبل لإنشاء علاقة بالله تعالى.

و(يعلمهم الكتاب).. وتنزل عليه شريعتك التي لا يطْهر الباطن بدونها، والتي تجعل الإنسان نموذجا كاملا للآخرين، ويعلم الناس هذه الشريعة بنفسه.

و(الحكمة).. وعندما يُبعث هذا الرسول الموعود يا رب.. يكون العقل الإنساني قد بلغ النضج، فلا يكون الإنسان بعقلية طفل يقال له كُن وافْعل، فإذا سأل لماذا.. قيل له لا تسأل، بل افعل ما تؤمر. لقد حدث هذا في زمن عيسى وموسى، ولكن عندما يكون العقل الإنساني قد ارتقى لا يطيع الإنسان بدون معرفة الحكمة من أي أمر. فلا تنزل عليه صحفًا كنوح، أو شريعة كموسى، أو أحكاما كداود فقط، بل نرجوك أن تبين معها الحكمة والفلسفة وراء أحكامها حتى لا يطيعوك بأجسامهم فقط، بل أيضا بعقولهم وقلوبهم.. أي يعرفوا أن ما يقال لهم وراءه فلسفة ومنطق ومصالح ومنافع. (ويزكيهم).. أي لا يطهر عقولهم فقط، بل بتعليمهم الحكمة يملأ قلوبهم بحبك حتى يتفانوا في ذات الله وتنعكس فيهم الصفات الإلهية، فلا يكونوا مجرد أناس فقط.. بل مرايا ينعكس فيها وجود الله تعالى. وليتبع هذا الرسول طرُقًا وأساليب تؤدي إلى ازدهار أمته.

(إنك أنت العزيز الحكيم).. يا رب، نحن ندرك أن ما سألناك يبدو مستحيلا بعيد المنال في الظاهر، و لم يحدث هذا قط منذ أن خلقت الدنيا، ولكننا نعرف جيدا أنك

إله عزيز، ما شئتَ كان ولا ريب، هذا هو شأن ألوهيتك. فأنت القادر على فعل ذلك وإن لم يكن قد وقع من قبل. لذا نسألك أن تبعث هذا الرسول الذي تتحقق على يده كل هذه الأمور.

من الممكن أن يعترض أحد: ما دام الله لم يرسل مثل هذا الرسول من قبل، فلماذا يبعثه الآن؟ ولو كان بعْثُ رسول كهذا ضروريًّا من قبل فلماذا ظلم الله الإنسانية بعدم بعثه؟ لقد دحض ذلك بقوله تعالى (العزيز الحكيم).. أي أنه يعرف أن مثل هذا الرسول لم يكن ليُبعث من قبل.. لأن الناس لم يكونوا ليتحملوا تعاليم محمد ﷺ. فبقول (أنت العزيز الحكيم) استشار إبراهيم غيْرة الله تعالى، وقال إن مسألتنا معقولة لأننا ندرك أنك قادر على تحقيقها، كما لا نقول إنك ضننت بذلك على الناس بخلا –معاذ الله، بل نعرف أن حكمتك اقتضت ذلك، لأن بعثه لم يكن يناسب الحال. نرى في هذا الدعاء أمرا عجيبا آخر.. ذلك أن إبراهيم قال (ابعث فيهم رسولا) ولم يقل (رُسلا).. مع أنه تلقى عن ذريته نبأ واضحًا يعرف منه أنه سوف يُبعث بينهم عديد من الرسل.. فلماذا يدعو الله ببعث رسول واحد من أبناء إسماعيل؟ ويتبين من ذلك بجلاء أنه كان قد انكشف بالوحي لإبراهيم تماما أن النبي الذي يكون خاتم النبيين، والذي تنتهي بكتابه وحده كل الشرائع. .سوف يبعث من بني إسماعيل.

لقد رأيت أن المنشقين عن جماعتنا عندما يسمعون مني كلمات كهذه يقولون: انظروا إنهم أيضا يؤمنون بأن هناك رسولا واحدا فقط.

إننا لم نرفض قط أن محمدا رسول الله ﷺ هو الرسول الوحيد الذي لا تنقطع نبوته إلى يوم القيامة.. بل إنما نعتبر نبوة مؤسس جماعتنا – الإمام المهدي والمسيح الموعود – نبوة تابعة لمحمد ﷺ، وظلاً لها، والظل لا يكون شيئا مستقلا عن أصله. فليس هنا الآن حكم جديد ولا تعليم جديد ولا أمر جديد ولا هدى جديد، تعليمه هو هو، وهدايته هي هي ، والأحكام التي جاء بها هي هي كما جاء بها وكما وردت في القرآن الكريم تماما. لو كنا نعتبر المسيح الموعود نبيا مستقلا لاقتضى ذلك أن يكون كل شيء جديدا، ولكن الأمر الواقع أن كل ما عندنا هو نفس ما أعطاناه

سيدنا محمد ﷺ. وكل ما حدث هو أن الناس كانوا قد نسوا تعاليم المصطفى ولم يكونوا عاملين بها، لذلك أرسل الله بروزا لمحمد ﷺ. فنبوته ليست نبوة مستقلة، وإنما في الحقيقة نبوة محمد ﷺ. ولو دعت الحاجة إلى بعث العديد من النبيين من هذا النوع فلا حرج في ذلك، لأنهم لن يأتوا بدين جديد، وإنما يعملون لإحياء دين محمد رسول الله ﷺ.

وهنا ينشأ سؤال: ما دام إبراهيم قد أدرك أن نبيا سوف يبعث بينهم، فلماذا دعا مثل هذا الدعاء؟

وكما ذكرت فيما سبق أن السعي لتحقيق أنباء الله في حد ذاته عمل حسن، وأول شيء يقوم به الإنسان لتحقيق نبأ هو أن يتجه إلى الدعاء، ثم يبذل سعيه الدنيوي لتحقيقه. الحمقى يظنون أن على الإنسان الكفَّ عن بذل المجهود بعد وعد من الله، مع أن الإنسان مطبوع على أن يبذل قصارى جهده لتحقيق ما يريده حبيبه. ولما كان أنبياء الله على علاقة حب عميقة معه عز وجل، فإنهم يبذلون كل جهد لتحقيق كلامه، لكي تظهر آيته. فلا محل للاعتراض على دعاء إبراهيم بعد أن تلقى هذا النبأ من الله تعالى، بل إن دعاءه هذا دليل على أنه عاشق صادق لربه. فبغض النظر عن أن الله قادر مطلق القدرة على تحقيق ما يريده بنفسه.. دعا: يا رب، ابعث منهم رسولا عظيمًا. أقول عظيمًا لأن التنوين هنا للتعظيم؛ فالتنوين يأتي أحيانا للتعظيم وأحيانا للتحقير. وهذا الدعاء في رأيي يبين أن إبراهيم وإن كان يدرك أن كثيرا من الأنبياء سوف يبعثون من ذريته، ولكنه كان يتمنى أن يبعث الرسول الأخير الذي يكون سبب نجاة العالم من بني إسماعيل وليس من بني إسحاق، لأن بني إسحاق يكونون قد نالوا من النبوة إلى ذلك الوقت نصيبا كافيا.

إن الكتاب المسيحيين يعترضون عموما على هذا الجانب من دعاء إبراهيم قائلين إنه لا يوجد أي ذكر في التوراة أن الله قطع وعدا مع إبراهيم في حق ذرية إسماعيل، ولو ثبت وجود وعد كهذا، فأي دليل أن محمدا من ذرية إسماعيل؟

فلنتذكر أن دراسة التوراة تكشف أن بني إسحاق كانوا يُكِنون كراهية شديدة تجاه إسماعيل وذريته. ويقال إن سبب ذلك أن جدة بني إسرائيل —السيدة سارة —كانت

تكره السيدة هاجر وإسماعيل؛ وليس ببعيد أن ينتقل أثر هذه الكراهية في نسلها، ولذلك أخذ إبراهيم زوجته هاجر وابنهما إسماعيل إلى مكان ناءٍ وتركهما هناك. تقول التوراة:

(ورأت سارة ابنَ هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق)(تكوين٢١:٩، ١٠). وشقَّ هذا القول على إبراهيم أول الأمر، ولكن الله قال له (لا يقبُح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها). (المرجع السابق:١٢).. أي لا يشق عليك قولها، بل نفِّذ ما طلبته منك.

وتتبين كراهية بني إسحاق وبني إسماعيل من هذا النبأ التوراتي بشأن إسماعيل:(يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه) (تكوين ١٦:١٢).

فسبب هذه الكراهية بين بني إسحاق وبني إسماعيل، وبسبب التحريف الذي تعرضت له التوراة.. إذا لم يوجد أي نبأ واضح في حق إسماعيل وذريته.. فليس من العدل أن نرفض شهادة قرآنية على هذا السبب وحده. وكما نستطيع القول –بناء على شهادة التوراة –إنه كان هناك وعد مع بني إسحاق، كذلك نستطيع القول – بناء على شهادة القرآن الكريم – إنه كان هناك وعد مع بني إسماعيل أيضا.

ولو لم يسلّموا بذلك فإننا نجد في التوراة إشارات تبين أن نسل إسماعيل أيضا سوف يرثون نِعَمًا خاصة. ونرى أن الكلمات التي وردت في التوراة في حق بني إسحاق نفسها وردت في حق بني إسماعيل، حيث قيل (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا. اثني عشر رئيسا يلِد، وأجعله أمة كبيرة) (تكوين:١٧:٢٠).وقيل عن إسحاق ابن سارة: (فتكون أمما وملوكُ شعوبٍ منها يكونون) (تكوين ١٧:١٦). فلا بد لنا إذن من التسليم أنه كما اعتبر بنو إسحاق ورثة لنعم الله كذلك كان بنو إسماعيل ورثة لمثل تلك النعم.

ولو قيل إن إسحاق ورد في حقه: (ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية) (تكوين ١٧:٢١)، وأن هذا معناه أن الأنبياء يُبعثون من بني إسرائيل فقط.. فهذا لا يصلح كدليل معقول، لأنه حتى قبل ولادة

إسحاق كان الله قد قطع عهدا مع إبراهيم واشترط أن تكون علامة هذا العهد هي الاختتان. (تكوين ١٧:١١)، ونرى أن إبراهيم ختَن إسماعيل أيضا (تكوين ٢٥:١٧). فلو كان هذا العهد في حق إسحاق وذريته فقد لاكْتفى إبراهيم بختنه لأن العهد كان مقطوعا معه، واكتفى بختن عبيده لأنه أُمر بذلك، أو اكتفى بختن إسحاق. لماذا ختن ابنه إسماعيل البالغ ثلاثة عشر سنة؟ هناك سبب واحد لذلك وهو أن هذا الوعد كان ليتحقق في ذريته أيضا. فاختتان إسماعيل دليل واضح على أنه أيضا كان من أولاد إبراهيم، وكان من المقدر أن يتم هذا الوعد في حقه أيضا. ونجد عادة الختان موجودة على الدوام في بني إسماعيل، وهذا دليل على أن الاختتان لم يكن لإسماعيل وحده، وإنما أيضا لذريته. إذن، فهذا العهد الذي قُطع في حق بني إسحاق كان أيضا في حق بني إسماعيل.

أما عن قول (عهدي أقيمه مع إسحاق) فإنه- نظرا إلى الظروف والقرائن الأخرى –يعني أن بداية هذا العهد الأبدي سوف تكون ببني إسحاق. وبالفعل نرى أن العهد الذي قطع مع إبراهيم في ذريته بدأ تحقيقه في بني إسحاق.

لكن نجد في التوراة عهدا في حق إسماعيل أيضا، لأنه أُمر أيضا بالاختتان كما يتبين من فقرة (وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين خُتن في لحم غرلته)(تكوين ٢٥:١٧).كما كان هناك في حق إسماعيل وعد بالبركة أيضا (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. هاأنا أباركه وأكثِّره كثيرا جدا) (تكوين٢٠:١٧) (...سأجعله أمة عظيمة) (تكوين ١٨:٢١). فكان من الضروري أن يشترك إسماعيل أيضا في هذه البركة، وإن لم يكن مشتركا في الوعد الخاص بوقوع أرض كنعان في يد بني إبراهيم، لأن ذلك الوعد كان سيتحقق مع بني إسحاق فقط.

إلا أن اليهود والنصارى يظنون خطأ أن عهد البركة كان خاصا ببني إسحاق وحدهم، مع أن العهد الإبراهيمي كان له جانبان: جانب مُجْمل وجانب مفصَّل. فالعهد المجمل أنني سوف أبارك ذريتك، والمراد من الذرية إسحاق و إسماعيل كليهما. والعهد المفصل أيضا ذو شقين: عهد لإسحاق وعهد لإسماعيل. والعهد لإسحاق أنه سوف يحكم كنعان نسلا بعد نسل. أما إسماعيل فتقول التوراة فقط

إن الله وعد في حقه أنه سوف يباركه ويثمره ويكثّره كثيرا جدا. كيف تحقق وعد البركة هذا في حق إسماعيل؟ لا تجيب التوراة على هذا السؤال، ولكن الجواب موجود في القرآن الكريم الذي يقول إن الله وعد إبراهيم أنه سوف يعطي إسماعيل وذريته الحكم على مكة وما حولها، وأنه تعالى سوف يحمي بلدهم المركزي من هجوم الأعداء دائما، وأنهم سوف يحكمون على تلك المنطقة كلها ماديا وروحيا، وأنه سوف يبعث من ذريته رسولا عظيما يكون سبب هداية للعالم كله.

فمن الخطأ القول إنه لم يكن أي وعد بالبركة في حق بني إسماعيل. إن الشهادة الداخلية للتوراة نفسها تبين أنه كان هناك وعد بالرقي لبني إسماعيل، وكان من الضروري أن يتم في حق بني إسماعيل كما تحقق في حق بني إسحاق.

أما سؤالهم: افترضنا أنه كان هناك وعد في ذرية إسماعيل. ..فأي دليل على أن محمدا كان حقا من ذرية إسماعيل؟ فجوابه الأول أنه ليس ثمة دليل على انتماء شخص كبير إلى شعب معين إلا الروايات المتداولة بينهم جيلا بعد جيل. هل هناك أي دليل على أن شخصا فلانا هو من شعب كذا إلا روايات هذا الشعب بأنه منه؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الداعي لرفض بيان العرب في هذا الشأن؟ كانت قريش تدعي قبل بعث النبي ﷺ أنهم من بني إسماعيل. وكان العرب كلهم يسلِّمون بذلك، بل كانوا صنعوا تمثالا لإسماعيل ووضعوه في الكعبة. فأي شك بعد ذلك في أن قريشا من بني إسماعيل؟ لم يكن لإسماعيل أي صيت دنيوي حتى يُظن أن بعض القبائل العربية انتمت إليه لتنال حظا من هذا الصيت. فكيف يمكن أن نرفض دعوى قوم استمرت فيهم منذ القرون.. وخاصة أنه ليس لديهم أي دافع ليدّعوا بهذا الادعاء؟

والجواب الثاني على كون قريش من بني إسماعيل هو أنه لو كان هذا الادعاء من اختلاقهم. .فأين بنو إسماعيل الحقيقيون ليردوا ادعاءهم ويرفضوه؟ لا نجد أي قوم رفضوا دعوى قريش هذه.

والجواب الثالث: ورد في التوراة أن الله وعد أن يجعل من إسماعيل شعبا كبيرا (تكوين ١٧: ٢٠).. فأين ذلك الشعب الكبير الذي وعد في نسل إسماعيل. هذا

النبأ يتطلب أن يُعرف ذلك الشعب، وإلا فلا دليل على تحقق هذا النبأ. فما دامت قريش تدعي بكونها بني إسماعيل فلا بد من قبول دعواها.

فكلا الاعتراضين خطأ، والحق أن الله تعالى وعد بوعود كبيرة لذرية إسماعيل أيضا. وما دام بنو إسحاق قد صاروا فساقا فكان من حق بني إسماعيل خاصة أن يبعث منهم ذلك النبي الذي دعا من أجله إبراهيم.

الواقع أن دعاء إبراهيم هذا يتضمن الفرائض والواجبات التي تقع على أنبياء الله – عليهم السلام. كل نبي جاء إلى العالم كان من واجبه أن يتلو على الناس آيات الله، ويعلمهم كتاب الله، ويبين لهم حكمة شريعة الله، ويزكيهم. وكان على محمد ﷺ أن يقوم بأداء هذه الواجبات نفسها، ولكن الله تعالى لم يكتف – استجابة للدعاء الإبراهيمي –ببعث رسول عظيم من بني إسماعيل ليحقق كل هذه الأهداف الأربعة، بل بعثه أسمى وأفضل من سائر المرسلين مقاما.. إذ أدّى هذه المهام الأربع بأسلوب متميز لا نجد نظيره عند أي نبي. والحق أن هذا هو الكوثر الذي وهب الله تعالى لمحمد ﷺ.

أذكر أن بعض الإخوة طلبوا مني أن أعلمهم القرآن في زمن الخليفة الأول لسيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام). فبدأت من سورة البقرة، وعندما وصلت إلى قول الله تعالى (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. .) ألقي في قلبي كومضة البرق أن هذه الآية مفتاح لمواضيع هذه السورة كلها، وأن باقي السورة كلها شرح لهذه الآية، بل إن هذه المواضيع وردت في السورة بنفس ترتيب العناصر المذكورة في دعاء إبراهيم. ثم فتح الله عليَّ أمرا آخر إضافيا.. وهو أن سورة الكوثر جواب لهذا الدعاء الإبراهيمي. ولقد ذكرتُ كل هذه الأمور بالتفصيل في تفسير سورة الكوثر.

وقوله تعالى (يتلو عليهم آياتك) يتضمن نبأ ويشرح آية أخرى من القرآن الكريم.. وهي اعتراض الكفار (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) (الفرقان:٣٣). فكلمة (آياتك) في الدعاء الإبراهيمي تشير إلى أن كلام الله سوف ينزل على ذلك النبي قطعة قطعة. تنزل آيات فيتلوها على الناس، ثم تنزل آيات فيتلوها على الناس.

وهذا يبين أن إبراهيم قد أخبر كيف سينـــزل كلام الله عليه، فلن ينـــزل جملـــة واحدة، وإنما ينـــزل شيئا فشيئا.

والحكمة من نـــزول القرآن بهذه الكيفية التدريجية هي أنه إذا نزلت الشريعة كلها دفعة واحدة لكانت حملا ثقيلا مفاجئا يسبب القلق للإنسان، فيقول كيف أستطيع الوفاء بكل هذه المتطلبات جملة واحدة؟ ولكن نزوله قطعة قطعة يسهّل عليه العمل بما نزل، فيمضي في الرقي تدريجيا.

ومن معاني الآية: العلامة، وبناء على ذلك يعني قوله تعالى (يتلو عليهم آياتك) أنه يُطلع الناس على علامتك. وفي هذا إشارة ضمنية إلى أنه يقدم لهم كلاما يرون بـــه الله تعالى. لقد قال القرآن الكريم عن الله تعالى (لا تدركه الأبصار وهـــو يـــدرك الأبصار) (الأنعام:١٠٤)، أي أن العيون لا يمكن أن تصل إليه، ولكنه يـــصل إلى أهل الأبصار بكلامه. فمعنى قوله تعالى (يتلو عليهم آياتك) أنه يخبر الناس بعلامات يعرفون بها وجود الله، ويقدم أدلة تتجلى بها ذات الله لهم. وهذه الأدلة على نوعين: العقلية والإعجازية. فالمعنى أنه يخبر الناس بأمور عقلية ينالون بها معرفة الله تعـــالى، ويقدم لهم المعجزات والآيات التي تنـــزل من عند الله.

ومن معاني "الآية" العذاب، وبناء على ذلك يمكن أن يستنبط من قوله تعالى (يتلـــو عليهم آياتك) أنه يخبر قومه بأنباء العذاب.

ومن معاني "الآية" البناء العالي. فيعني قوله تعالى أن في تعاليمه ارتقاء تدريجيا مثل ما يُبنى البناء طابقا فوق طابق بالتدريج، وأن تعليمه يتضمن أســـباب رقـــي عظـــيم للمؤمنين.

وقوله تعالى (يعلِّمهم الكتاب) يعني أنه يأتيهم بتعليم سوف يحرَّر ويُكتب. لأن من معاني الكتاب لغة ما يُذكر فيه المسائل المختلفة مرتَّبة مبوَّبة. ونجد أن القرآن هـــو الكتاب الوحيد الذي وصل للصحابة عند وفاة النبي ﷺ في سوره مكتوبة ومحررة، وأن المسلمين وحدهم الذين يحق لهم بين الأمم كلها الادعاء بأن كتابنـــا القـــرآن وصلنا في صورة محفوظة مكتوبة دائما وبلا انقطاع منذ البداية وحتى يومنا هـــذا، وهذه الخصوصية لا توجد في أي كتاب سماوي آخر، فليس هناك كتاب سمـــاوي

وصل إلى أهله في هيئة مكتوبة، بل جمع بعضها بعد مئات السنين ولو كان بعضها – على سبيل الافتراض – في صورة مكتوبة في وقته فإن كل كلمة منه لم تكن وحْيًا كما هو الحال في القرآن.

إن العلماء لم يتكلموا عن التوراة أبدا من حيث تشكيل الكلمات، أما القرآن فأنهم يتحدثون عن كل حركة وسكَنة فيه، وضبطوا شكل كلماته بكل دقة، بل يتباحثون في مواقع الوقف عند القراءة. فالآية تعني أن ذلك الرسول يعلمهم كتابا سوف يُكتب في حياته، ويبقى محفوظًا.

ومن معاني (الكتاب) ما يجمع الأشياء، فيعني قوله تعالى (يعلمهم الكتاب) أن ذلك الرسول يأتي لهم بتعليم يشمل كل أنواع العلوم والهداية، ويكون جامعًا لكل ما يتعلق بالأخلاق والحضارة والدين والاقتصاد وما إلى ذلك.

ومن معاني (الكتاب) الفرض، فيعني قوله تعالى (يعلمهم الكتاب) أنه سيأتي لهم بشرع يكون فرضًا على الناس أن يعملوا به. وكأن كل الأمور الضرورية لتكميل الحياة الروحانية سوف تُذكر في كتابه للناس.

ومن معاني (الكتاب) الحُكم. هناك بعض الأوامر هي قطعية، وتبقى على حالها في كل صورة مثل الصلاة، ولكن هناك بعض الأوامر التي تتغير بتغير الظروف، مثلا تقول الشريعة الإسلامية إنكم إذا وجدتم المصلحة في إنزال العقوبة بمخطئ أو معتدٍ فعاقبوا، وإذا رأيتم المنفعة في العفو فاعفوا. فالأوامر التي لا تتغير هي الفرائض، وتلك التي تتغير بحسب الضرورة هي الأحكام. وتسمى أحكاما لأنها من الحكمة، وقد خُيّر فيها الإنسان ليفكر بنفسه بحكمة ويعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف عندئذ.

وفي حالة الفرائض لم يترك الله للمرء أي خيار ولم يكل الأمر فيها لأحد، وعلى سبيل المثال حدّد الله الركعات لصلاة الفرض وليس للإنسان أن يزيد عليها أو ينقص منها، ولكن ترك أمر النوافل للإنسان ليؤديها حسب التوفيق.

ونظرا لهذا الفرق بين الفرض والحكم يمكن أن يعني (ويعلمهم الكتاب) أنه سيأتي بكتاب جامع لكل الأحكام سواء كانت مفروضة إلزامية أو اختيارية تطوعية.

ومن معاني الكتاب القدر، فيعني قوله تعالى (ويعلمهم الكتاب) أن ذلك النبي يعلمهم مسألة القدر والقضاء الإلهي. والحق أننا لو تدبرنا لوجدنا أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يهيئ لنا علما صحيحا عن قضاء الله وقدره. أما الكتب الأخرى فإنها إما تميل بالإنسان ناحية الجبر أو إلى القدر، ولكن القرآن هو الذي بيّن لنا الجبر والقدر بيانا صحيحا. وللأسف أن من بين المؤمنين بالقرآن من صار قدَريا أو جبريا، مع أن المذهب الصحيح هو بين هذا وذاك. لقد سمعت بنفسي من الإمام المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) أننا بقدر ما تدبرنا علمنا أن عقيدة القدر ترفع الأمن، وكذلك عقيدة الجبر أيضا ترفع الأمن. فلو أخذ المرء بعقيدة القدر فقط لصار تاركا للدنيا، ولم يستطع التقدم في الخيرات، ولو اعتنق عقيدة الجبر لظن أن كل ما يقوم به من عمل إنما يجبره الله عليه، وعندئذ لن يعاف ارتكاب السيئات والمعاصي.. لأنه ينسب عمله وما يقع فيه إلى الله تعالى. فالعقيدة الصحيحة بين الطرفين. ومثال أعمال الإنسان كحصان مربوط بحبل طويل.. يظن أنه حر ويجري ويمرح، ولكن آخر الأمر يصاب بهزة فيتوقف. وكذلك الإنسان مقيد ومخير. إنه مقيد ومخير بحدود. فالذي لا يفهم القيد ضال، والذي لا يفهم الخِيار ضال أيضا. وهذا العلم إنما يناله الإنسان من القرآن وحده.

وقوله تعالى (والحكمة).من معاني الحكمة العدل.. فالمعنى أن ذلك النبي سوف يعلمهم العدل، وتكون تعاليمه مبرأة من الظلم تماما.

ومن معانيه أيضا أنه سوف يأخذ بالعلم إلى الكمال. هناك بعض الشرائع التي تصدر الأوامر فقط ولا تمنح العلم والحكمة وراء الأمر. فهي تقول افعل أو لا تفعل كذا ولا تبين السبب في هذا الأمر أو النهي. مما لا شك فيه أن الشرائع السابقة كانت تتضمن أحكاما لها حِكم، ولكن لم تذكر تلك الحِكم في كتبها. ولكن الله تعالى يقول إن القرآن الكريم فيه تعاليم مصحوبة بحكمتها. إنه يأمر بالصلاة ويذكر الحكمة وراءها، وينهى عن السرقة ويذكر السبب في هذا النهي، ولا يكتفي بقول: لا تكذبوا ولا تظلموا، بل يذكر النهي بالسبب ويبين الحكمة، فهو يجمع بين الأمر والعلم والحكمة.

ومن معاني الحكمة الحِلم.. أي الانتباه إلى المناسبة والمحل في فعل الشيء، وهذا يختلف عن العلم بعض الشيء. فالعِلم يخبرنا أن نفعل شيئا أو لا نفعله، ولكن الحلم يدلنا أن نفعل كذا في مناسبة وأن نفعل كيْت في مناسبة أخرى. فيعني قوله تعالى (والحكمة) أنه يدلنا على الحكمة وراء الفرائض، أما الأوامر التي لم تفرض على نمط معين وإنما تتغير بتغير الظروف فإنه يدلنا فيها على سبيل الحلم والعقل، ويخبرنا أن نفعل كذا في هذه المناسبة ونفعل كيت في تلك المناسبة.

ومن معاني الحكمة أيضا النبوة، فيكون معنى قوله تعالى (والحكمة) أنهم سوف يحصلون على مقام النبوة عن طريق ذلك الرسول.

(ويزكيهم). ذكرنا في شرح الكلمات أن التزكية هي الزيادة.. فيكون المعنى أنه يزيد عددهم. سوف يكون لكلامه تأثير غير عادي، فيقبل عليه الناس ويؤمنون به، وسوف يكون دينه غالبا على الأديان الأخرى. لذلك قال النبي ﷺ في حديث له "تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم " (أبو داود، كتاب النكاح). والولود هي التي تلد كثيرا، والودود شديدة الحب. أي سوف أتفاخر على الأمم الأخرى بكثرتكم يوم القيامة. فزيادة العدد سواء كانت بالتناسل أو بالتبليغ والدعوة يندرج تحت معاني (يزكيهم).

ثم إن تعليم الإسلام يتضمن أساسيا المبادئ التي لو عمل بها المسلمون لحققوا ازدهارًا ماديا أيضا بصورة غير عادية. فمثلا من تعاليمه الهامة (خذ من أموالهم صدقة تطهِّرُهم وتزكّيهم بها) (التوبة:١٠٣).. أي يا محمد، خذ من أبناء أمتك مالا وطهرهم به وزدهم. هذا المبدأ الذي أقامه الإسلام لا يوجد في أي كتاب سماوي آخر، وإنما هو الإسلام الذي فتح صندوقا ماليا قوميا، والهدف منه تقوية مساعدة الفقراء وتمكينهم من الوقوف جنبا إلى جنب مع الأثرياء في سباق الرقي.

ومن مصارف هذا الصندوق (المؤلَّفةُ قلوبهم)، ولا يعني ذلك أن يعطى الناس المال ليدخلوا في الإسلام، وإنما معناه أن يزوَّد أتباع الأديان الأخرى الراغبون في معرفة الإسلام بالكتب والمنشورات ويساعدوا في هذا السبيل ليعرفوا الحق؟

ومن مصارف هذا المال المساكين، أي الذين لا يستطيعون كسب المال ويمثلون عبئا على الآخرين. عندما يوجد أمثال هؤلاء في أمة يتعود الآخرون على السؤال برؤيتهم، وهكذا تزول الغيرة منهم. ولو كان هناك صندوق لمساعدتهم ما بقيت في أفرادها عادة السؤال. ويأمرنا الإسلام بقضاء حاجة الناس قدر المستطاع من قِبَل النظام الإسلامي، ويوجب سد حاجات هؤلاء المساكين بغير أن يسألوا، وعدم تهاون مع الذين يتسولون بدون ضرورة. ولولا ذلك لا يمكن تزكية الأمة.

وليس المسكين مَن لا مال عنده فقط، بل أيضا المسكين من يعرف حرفة، ولكنه لا يملك مالا لشراء الأدوات والخامات للاشتغال بحرفته. فمن الضروري مساعدة هؤلاء الأشخاص بالمال وتوفير الأدوات لهم ولوازم العمل في مهنتهم.

كذلك يجب تفقد أحوال الأيامى وحاجاتهم. كل هذه الأمور تندرج تحت قول الله تعالى (ويزكيهم)

لأن هذا يمكِّن أبناء الأمة من الازدهار.

ثم يراد بالتزكية الطهارة الخارجية لما ورد في الأحاديث من النهي عن إلقاء القاذورات في الطريق، والتبول في الماء الراكد، والتبرز في الأماكن الظليلة حيث يستريح الناس، والأمر بالوضوء للصلاة، والاغتسال يوم الجمعة، وإزالة الوسخ من الملابس، وتنظيف الأنف والأذن وقص الأظافر والشعر، والنهي عن حضور المسجد بعد أكل طعام ذي رائحة كريهة لما في ذلك من إيذاء للآخرين (الترمذي، الطهارة؛ ومسلم، الطهارة والجمعة والمساجد؛ والبخاري، الجمعة والاستئذان والأطعمة).

ومن معاني التزكية الطهارة القلبية. وقد قدم الإسلام في هذا الصدد أيضا تعليما ساميا. ثم هناك الطهارة الأخلاقية. وفيما يتعلق بالأخلاق فإن الإسلام قد أكد عليها كثيرا، وأمر باجتناب الغيبة والنميمة والتحاسد والظلم والخيانة قي التجارة، وأمر بتسوية الحساب وضبط المعاملات تحريريا، ونهى عن التعامل بالربا، وأمر بكتابة القروض، وبأداء الدين في ميعاده المقرر.

فقد تضمَّن القرآن الكريم كل الأحكام الضرورية المتعلقة بتزكية النفس وتفاصيلها، فقام بتزكية الأعمال والعواطف والأفكار الإنسانية. وهذا لا نجد له مثيلا في أي دين بالعالم، مما يشكِّل دليلا قويا على تحقق دعاء إبراهيم (عليه السلام). دعا إبراهيم ربه أن يبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، فاستجاب الله دعاءه وبعث محمدا رسول الله ﷺ من أولاد إسماعيل، فقام بكل ما تمناه إبراهيم في دعائه. لقد قال النبي ﷺ (أنا دعوةُ أبي إبراهيم) (مسند أحمد ابن حنبل، ج٤،ص ١٢٧). وبذلك بين بنفسه أنه ذلك الإنسان الذي بعثه الله تعالى لإصلاح الناس استجابة لدعوة أبيه إبراهيم (عليهما السلام). فهذا دعاء عظيم يحمل برهانا كبيرا على صدق الإسلام ونبيه محمد ﷺ.

(إنك أنت العزيز الحكيم)..ذُكرت هنا صفتان من صفات الله تعالى..هما العزيز والحكيم، ذلك لأن جزءا من دعاء إبراهيم يتعلق بصفة العزيز، والجزء الآخر يتعلق بصفة الحكيم. فقوله(يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب)متعلق بصفة العزيز، فالإله العزيز الغالب هو الذي يصل إلى عباده ويتداركهم، لأن العبد بجهوده الذاتية لا يستطيع أن يصل إلى الله، ثم إن من حق الإله الغالب العزيز أن يُصدر الأوامر والأحكام. أما قوله تعالى (..والحكمة ويزكيهم) فيتعلق بصفة الحكيم، لأن الحكيم هو الذي يعلِّم الآخرين الحكمة. والتزكية أيضا تتم بالحكمة، فلو أراد أحد فرض أوامره بدون ذكر الحكمة وراءها فإن القلب لا يطيعها، وإنما تطيع القلوب وتتأثر إذا عرفت الحكمة وراء الأوامر. ولا تتم التزكية إلا إذا تأثرت القلوب.

هذه هي الأهداف الأربع التي هي فرض أيضا على الخلافة الإسلامية: بيان الأدلة، وتعليم الشريعة، وتعليم أحكام القرآن والحكمة وراءها ليتجدد الإيمان ويزداد، والسعي للتطهير البدني والقلبي، وهي الواجب على جميع العاملين في مختلف فروع الجماعة من دعاة وأمراء ورؤساء وأمناء. وما لم يضع الإنسان هذه المقاصد الأربعة نصب عينيه لا يمكن أن يتحقق الغرض من تأسيس جماعتنا. لقد فصلت هذه الأمور في خطاب بعنوان "منصب الخلافة " عندما توليت هذا المنصب، لينتبه إليها الجميع، فلا يحتاجوا لتوجيه السؤال مرارا عن الخدمة التي يمكن أن يسدوها للجماعة، ولكن

قليل ما هم الذين انتبهوا لذلك. فعلى الإخوة الذين عندهم الشوق والحماس لخدمة الدين أن يقرءوا هذا الخطاب ويعرفوا واجباتهم. إن أفضل خدمة يمكن أن يقدموها للجماعة هي أن يحققوا هذه الأهداف الأربعة. هذا هو العمل الذي من أجل تحقيقه يقيم الله النبوة والخلافة والإمامة، وهذا هو العمل الذي يقوم به النبي ثم الخلفاء من بعده والتابعون. والذي يسعى لتحقيق هذه الأهداف يُدخل نفسه في زمرة أنصار الله تعالى.

الربط والترتيب:

إيذانا بأن الموضوع الذي بدأ من الآية (٤١) موشك على الانتهاء كرره الله في الآيتين (١٢٣و١٢٤)، وقال: انظروا لقد وفّينا بوعدنا وفضّلناكم على الناس، ولكن هكذا كان شكركم لهذه النعمة، والآن لن يُبعث النبي منكم، بل عليكم أن تؤمنوا بهذا النبي، وإلا لن تنفعكم شفاعة ولا غرامة إذا نزل بكم العذاب.

وفي الآية (١٢٥) بين أن حرمان بني إسرائيل من النبوة كان بحسب هذا العهد نفسه الذي قُطع مع إبراهيم في ذريته.

وفي الآيتين (١٢٦و١٢٧) ردّ على سؤال نشأ بناء على حرمان بني إسرائيل من النبوة، وهو من أي أمة يُبعث النبي الآن؟ فقال: من بني إسماعيل، ولذلك ذكّرهم بحادث بناء الكعبة الذي اشترك فيه إسماعيل مع إبراهيم، وقاما بدعوات كثيرة لا يمكن أن تضيع.

ثم في الآيات (١٢٨-١٣٠) ذكر تلك الأدعية وفصّل الأعمال التي يقوم بها النبي الذي دعا إبراهيم لبعثه، وبذكر تلك الأدعية أشار أن إبراهيم قد دعا لتقدم وازدهار بني إسماعيل كما دعا لتقدم بني إسحاق. فعندما حُرم بنو إسحاق لسوء أعمالهم من نعمة النبوة.. كان من حق بني إسماعيل أن ينالوا بعدهم نعمة النبوة، وكان من الضروري أن يُبعث النبي منهم، وهكذا حدث.